

جمهورية مصر العربية

وزارة الأوقاف

# فن الخطابة
# بين الماضي والحاضر


إعداد

**أ.د/ محمد مختار جمعة**

**وزير الأوقاف**

**رئيس المجلس الأعلى للشئون الإسلامية**

**وعضو مجمع البحوث الإسلامية**



١٤٤٢هـ / ٢٠٢٠م



بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي

وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾

(طه: ٢٥– ٢٨)

## بسم الله الرحمن الرحيم

## مقـدمــــة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم أنبيائه ورسله سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم)، وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه وسار على نهجه إلى يوم الدين.

**وبعـــد** :

فإن الخطابة أحد أهم فنون القول ، وضروب البيان ، ووسائل التأثير ، وإذا كان الشعر لغة الخاصة فإن الخطابة لغة الخاصة والعامة معًا.

وهي أقدم الفنون الأدبية وأوسعها انتشارًا ؛ إذ لا يُتصَوَّر أن يكون الشعر بتفعيلاته أو تِقنياته وتركيباته سابقًا على الخطابة بعفويتها وتلقائيتها وحاجة الناس الملحة إليها ، كما لا يتصور أن تكون القصة ببنائها الفني سابقة عليها أيضًا ، اللهم إلا ما كان حكيًا أو روايةَ أحداث لا ترقى إلى مفهوم الفن القصصي ، وإذا كان هذا حال القصة فمن باب أولى حال الرواية والمسرح.

وإذا كان فن الشعر قد نال منه في بعض العصور تكسُّب بعض الشعراء به ؛ فإن الخطابة في جملتها كانت لسان حال سادة القبائل وأشرافها في العصر الجاهلي ، ثم كانت في صدر الإسلام لسان حال الخلفاء الراشدين وولاتهم على الأمصار ، ثم لسان حال الخلفاء والملوك والأمراء والولاة في العصرين

الأموي والعباسي الأول ، وصارت في العصر الحديث لسان حال الرؤساء والملوك ، والقضاء الواقف والقضاء الجالس على حد سواء ، إضافة إلى الخطابة الدينية والبرلمانية والاجتماعية .

أما الخطابة الدينية فقد نهضت نهضة عظيمة مع ظهور الإسلام ، فَعَلا شأنها ، وارتفع قدرها ، وتبوأت مكانًا عليًّا بين فنون القول وألوان البيان ، حيث اتسع نطاقها ، وارتفعت رايتها ولا سيما في خطب الجمع والأعياد ، وأضفى عليها الإسلام جانبًا كبيرًا من المهابة والتقدير عندما ندب المسلمين جميعًا إلى سماعها والإنصات إليها ، ونهى عن اللغو أثناء سماعها ، فصارت خطبة الجمعة عيد المسلمين الأسبوعي ، الذي يحرصون فيه على التزود بما ينفعهم في أمور دينهم ودنياهم ؛ مما يجعل مهمة الخطيب عظيمة وثقيلة في آنٍ واحد .

وفي هذا الكتاب نلقي الضوء على تاريخ الخطابة من العصر الجاهلي ، إلى عصر صدر الإسلام ، فالأموي ، فالعباسي ، فالعصر الحديث ، وتجاوزنا – عن قصد– العصر المملوكي وعصر الاحتلال العثماني ؛ لما ساد حركة الأدب بصفة عامة والخطابة بصفة خاصة فيهما من فتور، ولا سيما عصر الاحتلال العثماني الذي بلغ فيه ضعف الحياة الأدبية والثقافية بصفة عامة منتهاه ؛ لما أثر عن العثمانيين من كُرهٍ بالغٍ للغة العربية ، ومحاولاتهم المستميتة فرض لغتهم التركية على البلاد التي احتلوها .

وجعلته في خمسة مباحث :

المبحث الأول: الخطابة قبل الإسلام .

المبحث الثاني: الخطابة في عصر صدر الإسلام.

المبحث الثالث: الخطابة في العصر الأموي.

المبحث الرابع: الخطابة في العصر العباسي.

المبحث الخامس: الخطابة في العصر الحديث.

وضَمَّنت كل عصر نماذج مختارة تعبر عن حال الخطابة فيه من جهة ، وتقدم زادًا علميًّا ومعرفيًّا وثقافيًّا يسهم في صقل معارف المتلقي وملكته الأدبية والبيانية من جهة أخرى .

وإني لأرجو أن أكون قد وفّقت فيما قصدت ، والله من وراء القصد ، وهو الهادي إلى سواء السبيل ، وهو الموفِّق والمستعان.

**أ.د/ محمد مختار جمعة مبروك**
**وزير الأوقاف**
**رئيس المجلس الأعلى للشئون الإسلامية**
**وعضو مجمع البحوث الإسلامية**
**بالأزهر الشريف**

# المبحث الأول

# الخطابة قبل الإسلام

# الخطابة قبل الإسلام

## أ – دوافع الخطابة وألوانها قبل الإسلام:

كان للخطابة في العصر الجاهلي دوافعها ؛ فهي وسيلة للدعـوة إلى الحرب ، والقتال ، والأخذ بالثأر ، والانتصار للقبيلة والعصبية أو التعصب لها، والتفاخر والتباهي بأمجادها ، ومفاخرة غيرها من القبائل أو منافرتها ، وهي لدى العقلاء منهم وسيلة للصلح بين المتحاربين أو المتخاصمين، وللرجوع إلى صوت الحكمة والعقل ، وهي إحدى وسائلهم للإقناع والتأثير على الملوك والسادة عند الوفادة عليهم ، وهي نمط من أنماط حياتهم في المناسبات الاجتماعية كالزواج وغيره ، وهم مع ذلك كله أرباب البلاغة والبيان ، لا تنقصهم الفصاحة ، ولا يتطرق إلى ألسنتهم لحن ولا عجمة.

وقد انبثقت موضوعات الخطابة في العصر الجاهلي من هذه الدوافع ، وتمثلت أهم ألوانها عندهم فيما يأتي :

٦- التحريض على القتال والأخذ بالثأر.

٢- إصلاح ذات البين.

٣- خطب المفاخرات والمنافرات.

٤- خطب الوفود والسفارات.

٥- خطب النكاح.

٦- خطب التوجيه والنصح والإرشاد.

**ب ـ نماذج من خطبهم**:

**١ – من خطبة قُسّ بْن سَاعِدَة الْإِيَادِيّ [1]:**

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ (رضي الله عنهما) قَالَ: قَدِمَ وَفْدُ عَبْدِ الْقَيْسِ عَلَى رَسُولِ الله (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ، فَقَالَ : " أَيُّكُمْ يَعْرِفُ الْقُسَّ بْنَ سَاعِدَةَ الْإِيَادِيَّ؟" قَالُوا : كُلُّنَا يَا رَسُولَ الله يَعْرِفُهُ ، قَالَ : "فَمَا فَعَلَ؟" قَالُوا: هَلَكَ، قَالَ: "مَا أَنْسَاهُ بِعُكَاظٍ فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ وَهُوَ عَلَى جَمَلٍ أَحْمَرَ ، وَهُوَ يَخْطُبُ النَّاسَ ، وَهُوَ يَقُولُ :

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اجْتَمِعُوا ، وَاسْتَمِعُوا وَعُوا ، مَنْ عَاشَ مَاتَ ، وَمَنْ مَاتَ فَاتَ ، وَكُلُّ مَا هُوَ آتٍ آتٍ ، إِنَّ فِي السَّمَاءِ لَخَبَـرًا ، وَإِنَّ فِي الْأَرْضِ لَعِبَـرًا ، مِهَادٌ مَوْضُوعٌ ، وَسَقْفٌ مَرْفُوعٌ ، وَنُجُومٌ تَمُورُ ، وَبِحَارٌ لَا تَغُورُ ، أَقْسَمَ قُسٌّ قَسَمًا حَقًّا لَئِنْ كَانَ فِي الْأَرْضِ رِضًا لَيَكُونَنَّ بَعْدَهُ سَخَطٌ ، إِنَّ لله لَدِينًا هُوَ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ دِينِكُمُ الَّذِي أَنْتُمْ عَلَيْهِ ، مَا لِي أَرَى النَّاسَ يَذْهَبُونَ وَلَا يَرْجِعُونَ؟ أَرَضُوا فَأَقَامُوا ، أَمْ تُرِكُوا فَنَامُوا؟ "[2].

---

(١) هو: قس بن ساعدة الإيادي ، خطيب العرب وشاعرها وحكيمها وحليمها في عصره، وهو أول من علا على شرف وخطب عليه ، وأول من اتكأ في خطبته على سيف أو عصا، وأول من قال في كلامه : أما بعد ، وأدركه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قبل النبوة ، ورآه بعكاظ، وكان يؤثر عنه كلامًا سمعه منه ، ت: ٢٣ قبل الهجرة. ( انظر: الوافي بالوفيات ، لصلاح الدين الصفدي ٢٤/ ١٨٠، تحقيق : أحمد الأرناؤوط ، دار إحياء التراث ، بيروت ١٤٢٠هـ– ٢٠٠٠م).

(٢) المعجم الكبير للطبراني ١٢/ ٨٨ ، حديث رقم : ١٢٥٦١.

٢- خطبة أبي طالب في زواج نبينا محمد (صلى الله عليه وسلم) بالسيدة خديجة بنت خويلد (رضي الله عنها)، وهذه الخطبة تعد من أشهر خطب الزواج في أدبنا العربي[١]، وفيها قام أبو طالب فقال :

الحمد لله الذي جعلنا من ذرية إبراهيم وزرع إسماعيل ، وجعل لنا بلدًا حرامًا ، وبيتًا محجوجًا ، وجعلنا الحكام على الناس ، ثم إن محمدًا بن عبد الله ابن أخي من لا يوازن به فتى من قريش إلا رجح عليه برًّا وفضلًا ، وكرمًا وعقلًا ، ومجدًا ونبلًا ، وإن كان في المال قل ؛ فإنما المال ظل زائل وعارية مسترجعة ، وله في خديجة بنت خويلد رغبة ، ولها فيه مثل ذلك ، وما أحببتم من الصداق فعليّ .

٣- خطبة هانئ بن قبيصة [٢] في التحريض على القتال[٣]:

قام هانئ بن قبيصة الشيباني في يوم ذي قار[٤] يحرض قومه من بني بكر على القتال ، فقال : يا معشر بكر: هالك معذور ، خير من ناج فرور، إن

(١) الكامل في اللغة والأدب ، للمبرد ٤/ ٤، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار الفكر العربي – القاهرة ، ط:٣، ١٤١٧هـ – ١٩٩٧م.

(٢) هو: هانئ بن قبيصة بن هانئ بن مسعود الشيباني ، أحد الشجعان الفصحاء في أواخر العصر الجاهلي ، كان سيد بني شيبان. (انظر: تاريخ الطبري ، محمد بن جرير الطبري ٢/ ٢٠٦– ٢٠٧، دار التراث ، بيروت ، ط:٢، ١٣٨٧هـ).

(٣) الأمالي ، لأبي علي القالي ١/ ١٦٩، دار الكتب المصرية ، ط:٢، ١٣٤٤هـ – ١٩٢٦م.

(٤) يوم ذي قار: يوم ينسب إلى منطقة ذي قار ، وهي منطقة قريبة من الحيرة ، وقعت فيها أعظم الأيام الحربية التي انتصر فيها العرب على العجم ، وكان سبب هذا اليوم أن كسرى طلب تركة=

الحذر لا ينجي من القدر ، وإن الصبر من أسباب الظفر ، المنيَّة ولا الدنيَّة ، استقبال الموت خير من استدباره ، الطعن في ثغر النحور أكرم منه في الأعجاز والظهور ، يا آل بكر: قاتلوا فما للمنايا بُـدّ .

٤- خطبة نفيل بن عبد العزى(١) في الحكم بين المتنافرين (٢):

وكان حرب بن أمية قد نافر عبد المطلب بن هاشم جد النبي (صلى الله عليه وسلم) وقد احتكما إلى نفيل بن عبد العزى ، فقال نفيل مخاطبًا حربًا : يا أبا عمر، أتنافر رجلا هو أطول منك قامة ، وأوسم منك وسامة ، وأعظم منك هامة ، وأقل منك لامة ، وأكثر منك ولدًا ، وأجزل منك صفدًا(٣)،

---

= النعمان بن المنذر ، وكان النعمان قد تركها عند هانئ بن قبيصة أمانة ، فرفض أن يفرط فيما اؤتمن عليه ؛ فأمر كسرى بإعداد جيش من الولايات الفارسية والعربية الحدودية ، فهب هانئ ابن قبيصة إلى قومه ليلا ، وحرضهم على القتال ، واجتمع العرب على العجم فغلبوهم. (انظر: العمدة في محاسن الشعر وآدابه ، أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني الأزدي ٢/ ٢١٨، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد ، دار الجيل ، ط: ٥ ، ١٤٠١هـ -١٩٨١م ، وتاريخ شبه الجزيرة العربية في عصورها القديمة ، عبد العزيز صالح ، ص ١٥٦، مكتبة الأنجلو المصرية ).

(١) هو: نفيل بن عبد العزّى القرشي العدوي ، جد الفاروق عمر بن الخطاب (رضي الله عنه). من كبار خطباء مكة قبل الإسلام ، وكان يحكم بين المتنافرين بالأسجاع. (انظر: البيان والتبيين للجاحظ ١/ ٢٥٠، دار ومكتبة الهلال ، بيروت ، ١٤٢٣هـ ، وتاريخ الأدب العربي د/ شوقي ضيف ص ٤١٣، دار المعارف ، مصر ، ط: ١، ١٩٦٠م).

(٢) المنمق في أخبار قريش ، أبو جعفر البغدادي ص٩١، تحقيق : خورشيد أحمد فاروق ، عالم الكتب، بيروت ، ط: ١، ١٤٠٥هـ -١٩٨٥م.

(٣) الصفد : العطاء. وَقد أَصْفَدَه : أي أَعطاهُ. (لسان العرب ، مادة : صفد).

وأطول منك مذودًا ؟! [1]، وإني لأقول هذا وإن فيك لخصالا : إنك لبعيد الغضب ، رفيع الصيت في العرب ، جَلد المريرة [2]، تحبك العشيرة ، ولكنك نافرت منفرًا.

٥- من خطبة المأمون الحارثي، يقول فيها [3]:

أرعوني أسماعكم ، وأصغوا إليَّ قلوبكم ، يبلغ الوعظ منكم حيث أريد ، طمح[4] بالأهواء الأشر[5]، وران [6] على القلوب الكدر ، وطخطخ الجهل[7] النظر ، إن فيما نرى لمعتبـرًا لمن اعتبر ، أرضٌ موضوعة ، وسماء مرفوعة ، وشمس تطلع وتغرب ، ونجوم تسري فتعزب ، وقمر تطْلعه النحور وتمحقه أدبار الشهور ، وعاجز مثر[8]، وحول [9] مكد [10]، وشاب

(١) المذود: اللسان لأنه يذاد به عن العرض. (لسان العرب ، مادة : ذود).

(٢) المريرة : الحبل الشديد الفتل، والعزيمة. (لسان العرب ، مادة : مدر).

(٤) الأمالي، لأبي علي القالي ١/ ٢٧٣، وجمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة ، أحمد زكي صفوت ١/ ٣٩-٤٠، المكتبة العلمية ، بيروت.

(٤) طمح : ذهب وارتفع وعلا.

(٥) الأشر: الكبر والبطر.

(٦) ران : غلب.

(٧) طخطخ الجهل : انضم بعضه إلى بعض. يقال للرجل الضعيف النظر : متطخطخ ، وقد طخطخ الليل بصره إذا حجبته الظلمة عن انفساح النظر. (لسان العرب ، مادة : طخخ).

(٨) مثر: كثير الثروة.

(٩) الحول: شديد الاحتيال.

(١٠) مكد: قليل الخير.

مختصر[1]، ويَفْن[2] قد غبر[3]، وراحلون لا يئوبون ، وموقوفون لا يفرطون ، ومطر يرسل بقدر؛ فيحيي البشر، ويورق الشجر ، ويطلع الثمر ، وينبت الزهر ، وماء ينفجر من الصخر الأير[4]، فيصدع المدر[5] عن أفنان الخضر ، فيحيي الأنام ، ويشبع السوام ، وينمي الأنعام ، إن في ذلك لأوضح الدلائل على المدبر البارئ المصور .

*    *    *

(١) شاب مختصر: مات في الشباب.

(٢) اليفن: الشيخ الكبير.

(٣) غبر: المراد بها هنا: مكث.

(٤) الأير: الصلب ، واليَرَرُ: مَصْدَرُ قَوْلِهِمْ: حَجَرٌ أَيَرُّ أَي صَلْد صُلب، يُقَالُ: صَخْرَةٌ يَرَّاءُ وحَجَرٌ أَيَرُّ. (لسان العرب ، مادة : يرر).

(٥) المدر: قطع الطين اليابس. (لسان العرب، مادة : مدر).

# المبحث الثاني
# الخطابة في عصر صدر الإسلام

# الخطابة في عصر صدر الإسلام

**أ ـ عوامل ازدهارها**:

لقد نهضت الخطابة في صدر الإسلام نهضة عظيمة ، فَعَلا شأنها ، وارتفع قدرها ، وتبوأت مكانًا عليًّا بين فنون القول وألوان البيان ، ويرجع ذلك لعدة عوامل ، أهمها:

١- تأثر الخطباء بروعة وبهاء الأسلوب القرآني ، وكثرة استمدادهم منه، واستشهادهم أو استئناسهم به ؛ إذ كانوا يستحسنون أن يكون في الخطب يوم الحفل وفى الكلام يوم الجمع شيء من القرآن .

يقول عمران بن حطان[١]: خطبت عند زياد خطبة ظننت أني لم أقصر فيها عن غاية ، ولم أدع لطاعن علة ، فمررت ببعض المجالس ، فسمعت شيخًا يقول: هذا الفتى أخطب العرب لو كان في خطبته شيء من القرآن[٢].

٢- أن الإسلام فتح أمام الخطابة مجالات عديدة ، فارتفعت رايتها في الجمع ، والأعياد ، وصلاة الاستسقاء ، والحماسة في القتال ، ومجالس الصلح ، والنكاح ، والوعظ ، والإرشاد.

---

(١) هو: أبو شهاب عمران بن حطان بن ظبيان، من بني سدوس بن شيبان من بكر بن وائل، كان في أول أمره من أهل السنة والجماعة ، فلما تقدمت به السن انتقل إلى مذهب الخوارج ، فكان من خطبائهم وشعرائهم. (انظر: تاريخ الأدب العربي ، د/ عمر فروخ ١/ ٤٩٩، دار العلم للملايين- بيروت ، ط:٤، ١٩٨١م ، وتاريخ الأدب العربي د/ شوقي ضيف ص٤١٣).

(٢) البيان والتبيين للجاحظ ٢/ ٦ .

٣- لم يقف تقدير الإسلام للخطابة عند توسيع نطاقها ، إنما أضفى عليها شيئًا من المهابة ، وجعلها داخلة في كثير من العبادات ، وندب الناس إلى سماعها والإنصات إليها ، فقال (صلى الله عليه وسلم) : "لَا يَغْتَسِلُ رَجُلٌ يَوْمَ الْجُمُعَةِ ، وَيَتَطَهَّرُ مَا اسْتَطَاعَ مِنْ طُهْرٍ ، وَيَدَّهِنُ مِنْ دُهْنِهِ[1]، أَوْ يَمَسُّ مِنْ طِيبِ بَيْتِهِ ، ثُمَّ يَخْرُجُ فَلاَ يُفَرِّقُ بَيْنَ اثْنَيْنِ ، ثُمَّ يُصَلِّي مَا كُتِبَ لَهُ ، ثُمَّ يُنْصِتُ إِذَا تَكَلَّمَ الإِمَامُ ، إِلَّا غُفِرَ لَهُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجُمُعَةِ الأُخْرَى"[2].

وقد حذر النبي (صلى الله عليه وسلم) تحذيرًا شديدًا من الكلام في أثناء خطبة الجمعة ولو كان طلبًا للإنصات ، فقال (صلى الله عليه وسلم) : "إِذَا قُلْتَ لِصَاحِبِكَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ : أَنْصِتْ - وَالإِمَامُ يَخْطُبُ - فَقَدْ لَغَوْتَ"[3].

قال ابن حجر: ويدل على وجوب الإنصات حديث علي (رضي الله عنه): "من دنا من الإمام فلغا ولم يستمع ولم ينصت كان عليه كفل من الوزر ، ومن قال: صه فقد لغا، ومن لغا فلا جمعة له ، ثم قال: هكذا سمعت نبيكم (صلى الله عليه وسلم)[4] ؛ لأن الوزر لا يترتب على من

(١) يدهن من دهنه: المراد به إزالة شعث الشعر به، وفيه إشارة إلى التزين يوم الجمعة.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الجمعة ، باب الدهن للجمعة ، حديث رقم: ٨٨٣.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه : كتاب الجمعة ، باب الإنصات يوم الجمعة، حديث رقم: ٩٣٤.

(٤) أخرجه أحمد وأبو داود ، ورواية ابن حجر في الفتح : "ومن دنا فلم ينصت كان عليه كفلان من الوزر"، وانظر: نيل الأوطار للشوكاني ٣/ ٢٧١، دار الحديث، مصر، ط:١، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م.

فعل مباحًا ولو كان مكروهًا كراهة تنزيه(١).

٤- أن اتساع الأمصار الإسلامية في عهد الخلفاء الراشدين وَسَّع آفاق الخطابة وبسط سلطانها أكثر من ذي قبل ، حيث صارت الحاجة في هذه الأمصار ماسَّة إلى الخطباء والوعاظ ، سواء في خطب الجمع أم في المناسبات الاجتماعية والعامة .

٥- أن العرب كانوا لا يزالون على فطرتهم البيانية وسليقتهم العربية السليمة التي لم يتسرَّب إليها لحنٌ ولا عجمة ؛ إذ كان احتكاكهم بغيرهم من الأمم ما يزال في بواكيره ، ولم يصل إلى الدرجة التي يُخشى معها اللحن ، إضافة إلى أنهم كانوا يعتزون بلغتهم التي هي جزء لا يتجزأ من دينهم وكيانهم .

**ب ـ أغراض الخطابة في هذا العصر** (٢):

١- الحث على توحيد الله (عز وجل)، وبناء العقيدة الصحيحة من الإيمان بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، وبالقدر خيره وشره حلوه ومره ، والإيمان بالبعث والحساب والجنة والنار.

٢- العمل على إرساء مبادئ وقواعد الإسلام من العبادات ، والمعاملات ، والقيم ، والأخلاق .

---

(١) فتح الباري لابن حجر ٢/ ٤١٥، دار المعرفة ، بيروت ، ١٣٧٩هـ.

(٢) راجع في ذلك : الأدب الإسلامي في عصره الأول ، د/ صلاح الدين عبد التواب ، ص٣٤، دار الطباعة المحمدية ١٤٠١هـ-١٩٨١م ، ودراسات في الأدب العربي ، أ.د/ طاهر عبد اللطيف عوض ، ص١٣٠، مكتبة الكليات الأزهرية ، جامعة الأزهر.

٣- خطب الحماسة ، ولا سيما عند ملاقاة العدو أو الاستعداد لملاقاته.

٤- الوعظ والإرشاد .

٥- الحث على سمو العلاقات الاجتماعية ، وإقامتها على أساس ديني، وذلك في شئون الصلح ، والنكاح ، وحق الجوار، وصلة الأرحام ، وإصلاح ذات البين ، وما شابه ذلك.

**خطبة النبي (صلى الله عليه وسلم) في حجة الوداع**:

خطب النبي (صلى الله عليه وسلم) الناس في حجة الوداع ، فقال: "الحمد لله ، نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ، أوصيكم عباد الله بتقوى الله وأحثكم على طاعته وأستفتح بالذي هو خير.

أما بعد : أيها الناس: اسمعوا مني أبين لكم ، فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا في موقفي هذا.

أيها الناس: إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا ، ألا هل بلَّغتُ؟ اللهم اشهد، فمن كانت عنده أمانة فليؤدِّها إلى الذي ائتمنه عليها ، وإن ربا الجاهلية موضوع ، وإن أول ربًا أبدأ به ربا عمِّي العباس بن عبد المطلب ، وإنَّ أول دم نبدأ به دم عامر بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب ، وإنَّ مآثر الجاهلية

موضوعة غير السدانة [١] والسقاية ، والعمد قود [٢]، وشبه العمد ما قتل بالعصا والحجر ، وفيه مائة بعير، فمن زاد فهو من أهل الجاهلية.

أيها الناس: إن الشيطان قد يئس أن يُعبد في أرضكم هذه ، ولكنه رضي أن يُطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم ، فاحذروه على دينكم.

أيها الناس: ﴿ إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِّيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ الله فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ الله ﴾[٣]، ويحرموا ما أحل الله ، وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ الله اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ الله يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾[٤]، ثلاثة متوالية ، ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان ، ألا هل بلَّغت؟ اللهم اشهد .

أيها الناس: إن لنسائكم عليكم حقًّا ، ولكم عليهن حق ، لكم عليهن ألا يوطئن فرشكم غيركم ، ولا يدخلن أحدًا تكرهونه بيوتكم إلا بإذنكم ، ولا يأتين بفاحشة مبينة ، فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تعضلوهن[٥] وتهجروهن في المضاجع ، وتضربوهن ضربًا غير مبرّح ، فإن انتهين

---

(١) السدانة : خدمة الكعبة.

(٢) العمد: القتل المتعمد. والقود: القصاص ، وهو : قتل القاتل بالقتيل .

(٣) سورة التوبة ، الآية : ٣٧.

(٤) سورة التوبة ، الآية : ٣٦.

(٥) تعضلوهن: تضيقوا عليهن.

وأطعنكم فعليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف ، وإنما النساء عندكم عوان[1] لا يملكن لأنفسهن شيئًا ، أخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله ، فاتقوا الله في النساء واستوصوا بهن خيرًا ، ألا هل بلَّغت؟ اللهم اشهد .

أيها الناس : إنما المؤمنون إخوة ، ولا يحل لامرئ مال أخيه إلا عن طيب نفس منه ، ألا هل بلَّغت؟ اللهم اشهد ، فلا ترجعن بعدي كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض ، فإني قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا بعدي ، كتاب الله وسنتي ، ألا هل بلَّغت؟ اللهم اشهد.

أيها الناس: إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد ، كلُّكم لآدم وآدم من تراب ، ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ الله أَتْقَاكُمْ إِنَّ الله عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾[2]، وليس لعربي على أعجمي فضل إلا بالتقوى ، ألا هل بلَّغت؟ اللهم اشهد! قالوا: نعم ، قال: فليبلغ الشاهد الغائب .

أيها الناس: إن الله قسم لكل وارث نصيبه من الميراث ، فلا يجوز لوارث وصية ، ولا تجوز وصية في أكثر من الثلث ، والولد للفراش وللعاهر الحجر، من ادعى إلى غير أبيه ، أو تولى غير مواليه فعليه لعنة الله والملائكة

---

(١) عوان: جمع عانية ، وهي الأسيرة ، أي: هن عندكم بمنزلة الأسرى.

(٢) سورة الحجرات ، الآية : ١٣.

والناس أجمعين لا يقبل منه صرف ولا عدل(1)، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته"(2).

**وقفة مع هذه الخطبة الجامعة**:

لقد وقف النبي (صلى الله عليه وسلم) هذا الموقف العظيم ليعلن في هذه الخطبة الجامعة – التي هي أشبه ما يكون بوصايا مُودِّع – عن طائفة من التشريعات الإسلامية العظيمة ، والتي كان من أهمها:

**١ـ حرمة الدماء والأموال**:

لم يكد النبي (صلى الله عليه وسلم) يُلِمّ بالحمد والشهادة والوصية بالتقوى حتى أعلن عن حرمة الدماء والأموال ، فدماء المسلمين وأموالهم حرام كحرمة يوم عرفة في هذا الشهر الحرام – شهر ذي الحجة – في هذا البلد الحرام (مكة المكرمة).

ولم يكتف (صلى الله عليه وسلم) بهذا التأكيد ؛ فعاد في آخر خطبته ليؤكد هذا الأمر مرة أخرى ، إذ يقول: "ولا يحل لامرئ مسلم مال أخيه إلا عن طيب نفس منه ، فلا ترجعن بعدي كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض".

---

(١) لا يقبل منه صرف ولا عدل : أي لا يقبل منه شيء ، وأصل العدل : أن يقتل الرجل بالرجل، والصرف: أن ينصرف الدم إلى أخذ الدية.

(٢) الخطبة في البيان والتبيين ٢/ ٣١ ، وتاريخ الطبري ٣/ ١٥٠، دار التراث ، بيروت ، ط:٢، ١٣٨٧هـ ، والسيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٤٤٧، تحقيق: مصطفى السقا ، وإبراهيم الأبياري ، وعبد الحفيظ الشلبي ، ط :٢، مصطفى الحلبي ١٣٧٥هـ – ١٩٥٥م.

وقد أسقط النبي (صلى الله عليه وسلم) ربا الجاهلية ، وبدأ بأقرب الموسرين إليه العباس بن عبد المطلب ، "وأول ربًا أضع ربا عمي العباس بن عبد المطلب"، وأسقط دماء الجاهلية ، وبدأ بأقرب الدماء إليه ، "وأول دمٍ نبدأ به دم عامر بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب".

وبذلك ندرك البون الشاسع بين المنهاج النبوي الذي يبدأ فيه الرسول (صلى الله عليه وسلم) بنفسه وأقرب الناس إليه – حيث يقول (صلى الله عليه وسلم): " وَايْمُ الله لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا"(١)– وبين كثير ممن تتملكهم المحاباة والمجاملة ، فإذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد ، إنه الفارق العظيم بين عدالة السماء وطغيان البشر.

**٢ ـ التحذير من التلاعب بالأشهر الحرم** :

فقد كان العرب إذا جاء شهر حرام وهم محاربون أحلوه وحرموا مكانه شهرًا آخر، فيستحلون "المحرم" ويحرمون "صفرًا"، فإن احتاجوه – أيضًا – أحلوه وحرموا ربيعًا الأول ، وهكذا كانوا يعملون حتى استدار التحريم على السنة كلها (٢).

وقيل : إن المشركين كانوا يحسبون السنة اثني عشر شهرًا وخمسة عشر

(١) صحيح البخاري ، كتاب أحاديث الأنبياء ، باب حديث الغار ، حديث رقم : ٣٤٧٥.

(٢) روح المعاني للألوسي١٠/ ٩٣، تحقيق: علي عبد الباري عطية ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط:١، ١٤١٥هـ.

يومًا، فكان الحج في رمضان ، وفي شوال ، وفي ذي القعدة ، وفي كل شهر من السنة ، وذلك بحكم استدارة الشهر بسبب زيادة الخمسة عشر يومًا.

وكان حج أبي بكر الصدّيق (رضي الله عنه) في السنة التاسعة من الهجرة واقعًا في شهر ذي القعدة بسبب ذلك ، فلما حج النبي (صلى الله عليه وسلم) وافق حجه ذا الحجة في العشر الأُوَل منه ، فأعلن (صلى الله عليه وسلم) نسخ الحساب الذي كانوا يحسبون به الزمن ، وأكد أن السنة إنما هي اثنا عشر شهرًا فقط ، فلا تداخل بعد اليوم: يوم عرفة الذي حج فيه رسول الله (صلى الله عليه وسلم)(1).

قال القرطبي: وهذا القول أشبه بقول النبي (صلى الله عليه وسلم): "إن الزمان قد استدار"، أي: إن زمان الحج قد عاد إلى وقته الأصلي الذي عينه الله يوم خلق السماوات والأرض(2).

**٣ ـ الوصايا بالنساء**:

أوصى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بالنساء خيرًا ، وأكد في كلمة موجزة جامعة القضاء على الظلم الذي كان يقع على المرأة في الجاهلية، وحفظ لها حقوقها وكرامتها الإنسانية التي تضمنتها أحكام الشريعة الإسلامية.

---

(١) انظر: تفسير القرطبي ٨/ ١٣٧، ١٣٨، دار الكتب المصرية – القاهرة ، ط:٢، ١٣٨٤هـ-١٩٦٤م ، وفقه السيرة لمحمد سعيد البوطي، ص ٣٤٣، ط : دار الفكر عام ١٩٧٨م.

(٢) تفسير القرطبي ٨ / ١٣٨.

ولقد كانت هذه الحقيقة جديرة بتأكيد الوصية بها ؛ بسبب من كانوا حديثي عهد بالإسلام قريبي عهد بتقاليدهم الجاهلية التي تقضي بإهمال شئون المرأة وعدم الاعتراف لها بأي حق[1]، فوضع النبي (صلى الله عليه وسلم) - لهم وللناس جميعًا إلى أن تقوم الساعة - ما للمرأة من حقوق ، وما عليها من واجبات.

**٤ ـ تقرير مبدأ الأخوة والمساواة:**

أكد النبي (صلى الله عليه وسلم) أن الناس سواسية كأسنان المشط ، لا فضل لعربي على أعجمي ، ولا لأعجمي على عربي ، ولا لأحمر على أسود ، ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى ، فلا فضل للون أو جنس ، ولا مزية لوطن أو لغة ، إنما هو مقياس واحد تتحدد به القيم ، ويعرف به فضل الناس جميعًا، وهو قوله تعالى : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ الله أَتْقَاكُمْ ﴾[2] .

كما أكدت الخطبة على ضرورة الالتزام بمنهج الله وإعطاء كل وارث حقه، وأنه لا وصية لوارث ، وأن الوصية لا تجوز فيما زاد على الثلث ، وأن الولد للفراش وللعاهر الحجر... إلخ .

وهذه الخطبة صورت في دقة بالغة حسن منطق الرسول (صلى الله عليه وسلم) في خطابته ، وأنه لم يكن يستعين فيها بسجع متكلف ولا بلفظ غريب ، فقد كان يكره اللونين جميعًا من الكلام لما يدلان عليه من

(١) فقه السيرة للبوطي ، ص ٣٤٤.

(٢) سورة الحجرات ، الآية : ١٣.

التكلف ، وقـد بـرأه الله تعـالى منه ؛ إذ يقول في كتابه العزيز على لسانه (صلى الله عليه وسلم) : ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴾[1].

**جـ - الأغراض التي قضت عليها الخطابة في عصر صدر الإسلام:**[2]

قضت الخطابة الإسلامية على كل الأغراض التي تخـالف الـدين وتعاليمـه، ومنها:

١ - الخطابة التي تدور حول المفاخـرات والتبـاهي بالأحساب والأنساب ، إذ يقــول النبي (صلى الله عليه وسلم): "إِنَّ الله (عَزَّ وَجَـلَّ) قَـدْ أَذْهَـبَ عَنْكُمْ عُبِّيَّةَ[3] الْجَاهِلِيَّةِ ، وَفَخْرَهَا بِالْآبَاءِ ، مُـؤْمِنٌ تَقِـيٌّ ، وَفَـاجِرٌ شَـقِيٌّ ، أَنْتُمْ بَنُو آدَمَ وَآدَمُ مِنْ تُرَابٍ ، لَيَدَعَنَّ رِجَالٌ فَخْرَهُمْ بِأَقْوَامٍ ، إِنَّمَا هُمْ فَحْـمٌ مِنْ فَحْمِ جَهَنَّمَ ، أَوْ لَيَكُونُنَّ أَهْوَنَ عَـلَى الله مِـنَ الْجِعْـلَانِ[4] الَّتِـي تَـدْفَعُ بِأَنْفِهَا النَّتِنَ"[5].

وكان عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) يقول : وَالله لَئِنْ جَاءَتِ الأَعَاجِمُ بِالأَعْمَالِ وَجِئْنَا بِغَيْرِ عَمَلٍ فَهُمْ أَوْلَى بِمُحَمَّدٍ مِنَّا يَوْمَ الْقِيَامَةِ[6].

---

(١) سورة ص ، الآية : ٨٦ ، وانظر: العصر الإسلامي ، د/ شوقي ضيف ، ص ١٢٠ .

(٢) انظر: دراسات في الأدب العربي ، أ.د/ طاهر عبد اللطيف عوض ، ص ١٣٣ .

(٣) العبية (بضم العين وتشديد الموحدة فالمثناة): الكبر والفخر، وعبية الجاهلية نخوتها.

(٤) الجعلان: جمع جعل (بضم ففتح)، وهو دابة سوداء كالخنفساء.

(٥) أخرجه أبو داود في سننه ، كتاب الأدب ، باب التفاخر بالأحساب ، حديث رقم : ٥١١٦ .

(٦) الطبقات الكبرى لابن سعد ٣/ ٣٩٦.

٢- الخطابة التي تدعو إلى الأخذ بالثأر ، وإشعال نار الفتنة ، وما يتبع ذلـك من العداوة والبغضاء .

٣- الخطابة التي تدعو إلى الموبقات ، وتقوم على إشاعة الفحشاء ، إذ يقـول عز وجل: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَالله يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾[1].

**د ـ خصائص الخطابة في عصر صدر الإسلام :**

اتسمت الخطابة في عصـــر صـدر الإسـلام بمجموعـة مـن الخصـائص والسمات ، أهمها :

١- بدؤها بالحمـد والثنـاء والصـلاة علـى رسـول الله (صـلى الله عليـه وسلم)، وكان خطباء السلف الصالح وأهل البيان من التابعين يسـمون الخطبة الـتي لم تبـدأ بالتحميد وتسـتفتح بالتمجيـد: البـتراء ، ويسـمون التي لم توشح بالقرآن وتزين بالصلاة على النبي (صلى الله عليه وسـلم) : الشوهاء[2].

٢- كثرة الاستشهاد من القرآن الكـريم وحـديث النبـي (صـلى الله عليـه وسلم) على نحو ما نرى من قول الصديق (رضي الله عنه) في خطبـة لـه: أوصيكم بتقوى الله وحده ، وأن تثنوا عليه بما هو أهله ، وتخلطوا الرغبـة

---

(١) سورة النور، الآية : ١٩.

(٢) البيان والتبيين ٢ / ٦.

بالـرهبـة ، والإلحاف بالمسألـة [1] ؛ فإنّ الله أثنى على زكريّا وأهـل بيتـه ، فقال: ﴿إِنَّهُمْ كانُوا يُسارِعُونَ فِي الْخَيْراتِ وَيَدْعُونَنا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾[2].

ومنه قول سيدنا عمـر بـن الخطاب (رضي الله عنه) في خطبة له : إنّ رسـول الله (صلى الله عليه وسلم) قام في مثل مقامي هذا ، فقال : " أحسنوا إلى أصحابي ، ثمّ الّذين يلونهم ، ثمّ يفشو الكذب حتّى يحلف الرّجل عـلى اليمـين قبـل أن يستحلف عليها ، ويشهد على الشّهادة قبل أن يستشهد عليها ، فمـن أحـبّ منكم أن ينال بحبوحة الجنّة فليلزم الجماعة ؛ فإنّ الشّيطان مع الواحد ، وهـو من الاثنين أبعد ، ألا لا يخلونّ رجل بامرأة فإنّ ثـالثهما الشّـيطان ، ألا ومـن كان منكم تسوءه سيّئته وتسـرّه حسنته فهو مؤمن "[3].

٣- سلوكها طريقًا دينيًّـا في مثـل خطـب الجمعـة ، والعيـدين ، والحـج ، والإرشاد والتوجيه ، والترغيب في الثواب والترهيب من العقاب[4].

٤- عنايتهـا بجميع جوانب الحياة ، فقد كانت لسان حال الإسـلام الـذي فصّل للناس كل ما يتصل بأمور دينهم ودنياهم .

٥- التأثر الشديد بأسلوب القرآن الكريم في البلاغة والإقناع .

---

(١) الإلحاف بالمسألة : الإلحاحُ فيها. (انظر: العين ، مادة : لحف).

(٢) سورة الأنبياء ، الآية : ٩٠، وانظر: عيون الأخبار ٢/ ٢٥٢.

(٣) الحديث أخرجه الإمام أحمد في مسنده ، حديث رقم : ١٧٧، وانظر: تاريخ واسط ، لا بن حبيب الرزّاز الواسطي ، ص٢٣٣، تحقيق : كوركيس عواد ، عالم الكتب ، بيروت، ط:١، ١٤٠٦ هـ.

(٤) انظر: دراسات في الأدب العربي ، أ.د/ طاهر عبد اللطيف عوض ، ص١٣٠.

٦- صفاء ألفاظها ، وسهولة عباراتها ، ومتانة أساليبها [1]، وبُعْدها عن الغريب والحوشي ، وتجنب السجع إلا ما يأتي عفوًا غير متكلف.

### هـ- نماذج من الخطابة في هذا العصر:

**١- من خطب أبي بكر الصديق (رضي الله عنه):**

- لما بويع أبو بكر الصدّيق (رضي الله عنه) صعد المنبر فنزل مرقاة من مقعد النبيّ (صلى الله عليه وسلم) فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال: إني وليت أمركم ولست بخيركم ، ولكنه نزل القرآن وسنّ رسول الله (صلى الله عليه وسلم). اعلموا أيها الناس أنّ أكيس الكيس[2] التّقى، وأنّ أحمق الحمق الفجور ، وأنّ أقواكم عندي الضعيف حتى آخذ له بحقّه، وأضعفكم عندي القويّ حتى آخذ منه الحقّ ، إنما أنا متّبع ولست بمبتدع، فإن أحسنت فأعينوني ، وإن زغت فقوّموني ، أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم[3].

- عن عبد الرحمن بن إسحاق ، عن عبد الله القرشيّ ، عن عبد الله بن حكيم قال: خطبنا أبو بكر (رضي الله عنه) فقال:

أما بعد ، فإني أوصيكم بتقوى الله وحده وأن تثنوا عليه بما هو أهله ، وتخلطوا الرغبة بالرهبة ، والإلحاف بالمسألة ؛ فإنّ الله أثنى على زكريّا وأهل

---

(١) انظر: دراسات في الأدب العربي ، أ.د/ طاهر عبد اللطيف عوض ، ص١٣٠.

(٢) أَكْيَسُ ، أَي أَعْقَلُ. والكَيْسُ: العقْلُ والفِطْنَةُ والفِقْهُ (تاج العروس ، مادة : كيس).

(٣) عيون الأخبار ، ابن قتيبة الدينوري ٢/ ٢٥٤، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤١٨هـ.

بيته ، فقال : ﴿إِنَّهُمْ كانُوا يُسارِعُونَ فِي الْخَيْراتِ وَيَدْعُونَنا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾[1].

ثم اعلموا أنكم تغدون وتروحون في أجل قد غيّب علمه عنكم ، فإن استطعتم ألّا ينقضي إلا وأنتم في عمل لله فافعلوا ، ولن تستطيعوا ذلك إلا بالله ، فسابقوا في مهل ؛ فإنّ قومًا جعلوا آجالهم لغيرهم ونسوا أنفسهم، فأنهاكم أن تكونوا أمثالهم ، والوحى الوحى[2]، والنجاء النجاء! فإنّ من ورائكم طالبًا حثيثًا مرّه ، سريعًا سيره[3].

– وكان آخر كلام أبي بكر (رضي الله عنه) الذي إذا تكلم بـه عُرِف أنـه قد فرغ من خطبته : اللهم اجعل خير زماني آخره ، وخير عملي خواتمه ، وخير أيامي يوم ألقاك [4].

## ٢ـ من خطب عمر بن الخطاب (رضي الله عنه):

– صعد عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) المنبر فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: يا أيها الناس ، إني داع فأمّنوا: اللهم إني شحيح فسخّني في نوائب المعروف ، قصدًا من غير سرف ولا تبذير ، ولا رياء ولا سمعة ، واجعلني أبتغي بذلك وجهك والدار الآخرة .

---

(١) سورة : الأنبياء ، الآية :٩٠.

(٢) الوَحى: العَجَلَةُ ، يَقُولُونَ : الوَحى الوَحى والوَحاء الوَحاء يَعْنِي: البِدارَ البِدارَ ، والإسراع. (لسان العرب ، مادة : وحى).

(٣) عيون الأخبار ٢/ ٢٥٢.

(٤) العقد الفريد ، ابن عبد ربه ٤/ ١٥٦، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط:١، ١٤٠٤هـ.

- اللهم ارزقني خفض الجناح ولين الجانب للمؤمنين ، اللهم إني كثير الغفلة والنسيان ، فألهمني ذكرك على كل حال ، وذكر الموت في كل حين؛ اللهم إني ضعيف عن العمل بطاعتك ، فارزقني النشاط فيها والقوة عليها بالنية الحسنة التي لا تكون إلا بعونك وتوفيقك.

- اللهم ثبّتني باليقين والبرّ والتقوى ، وذكر المقام بين يديك والحياء منك ، وارزقني الخشوع فيما يرضيك عني ، والمحاسبة لنفسي ، وإصلاح الساعات ، والحذر من الشبهات.

- اللهم ارزقني التفكر والتدبر لما يتلوه لساني من كتابك ، والفهم له ، والمعرفة بمعانيه ، والنظر في عجائبه ، والعمل بذلك ما بقيت ؛ إنك على كل شيء قدير.

- وكان آخر كلام عمر (رضي الله عنه) الذي إذا تكلم به عرف أنه فرغ من خطبته: اللهم لا تدعني في غمرة ، ولا تأخذني على غرّة ، ولا تجعلني من الغافلين[1].

**٣ـ من خطب عثمان بن عفان (رضي الله عنه)** :

- خَطَب عثمان (رضي الله عنه) الناس بعد ما بويع ، فقال :

أما بعد ، فإني قد حملت وقد قبلت ، ألا وإني متبع ولست بمبتدع ، ألا وإن لكم عليَّ بعد كتاب الله (عزَّ وجلَّ) وسنة نبيه (صلى الله عليه وسلم)

(١) العقد الفريد ٤/ ١٥٦ - ١٥٧.

ثلاثًا: اتباع من كان قبلي فيما اجتمعتم عليه وسننتم ، وسن سنة أهل الخير فيما لم تسنوا عن ملأٍ ، والكف عنكم إلا فيما استوجبتم .

ألا وإن الدنيا خضرة قد شهيت إلى الناس ، ومال إليها كثير منهم ، فلا تركنوا إلى الدنيا ولا تثقوا بها ، فإنها ليست بثقة ، واعلموا أنها غير تاركة إلا من تركها [1].

- من آخر خطبة خطبها عثمان (رضي الله عنه):

إن الله (عز وجل) إنما أعطاكم الدنيا لتطلبوا بها الآخرة ، ولم يعطكموها لتركنوا إليها ، إن الدنيا تفنى ، والآخرة تبقى ، فلا تبطرنكم الفانية ، ولا تشغلنكم عن الباقية ، فآثروا ما يبقى على ما يفنى ، فإن الدنيا منقطعة ، وإن المصير إلى الله ، اتقوا الله (عز وجل) ، فإن تقواه جنة من بأسه، ووسيلة عنده ، واحذروا من الله الغير [2].

**٤ـ من خطب علي بن أبي طالب (رضي الله عنه)**:

- خطب علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) فقال:

أما بعد ، فإن الدنيا قد أدبرت وآذنت بوداع ، وإنّ الآخرة قد أقبلت فأشرفت باطّلاع ، وإن المضمار اليوم وغدًا السّباق ، ألا وإنكم في أيام أمل من ورائه أجل ، فمن قصّر في أيام أمله قبل حضور أجله فقد خسر عمله.

---

(١) تاريخ الطبري ٤/ ٤٢٢.

(٢) المصدر السابق ٤/ ٣٨٤.

ألا فاعملوا لله في الرّغبة كما تعملون له في الرّهبة ، ألا وإنّي لم أر كالجنة نام طالبها ، ولا كالنار نام هاربها.

ألا وإنه من لم ينفعه الحقّ ضرّه الباطل، ومن لم يستقم به الهدى جار به الضلال ، ألا وإنكم قد أُمرتم بالظّعن[1]، ودُللتم على الزاد ؛ وإنّ أخوف ما أخاف عليكم اتِّباع الهوى وطول الأمل[2].

- ومن خطب علي (رضي الله عنه) أنه قال بعد حمد الله والثناء عليه :

أوصيكم عبادَ الله ونَفسي بتَقْوى الله ولُزوم طاعته ، وتقديم العَمَل وتَرْك الأَمَل ؛ فإنه من فَرّط في عمله لمْ يَنْتفع بِشيء من أمله .

أين التَّعِب بالليل والنهار ، والمقتحم لِلُجج البحارِ ، ومَفاوِز القِفار ، يَسير من وراء الجبال ، وعالج الرمال ، يَصل الغُدُوّ بالرَّواح ، والمَساء بالصَّباحِ ، في طلب مُحقَرات الأرباحِ ؛ هَجَمتْ عليه منيّته ، فعظُمت بنفسه رَزِيته ؛ فصار ما جَمع بُورًا ، وما اكتسب غرورًا ، ووافَى القيامةَ مَحْسورًا.

أيها اللاهي الغارّ بنفسه ، كأنِّي بك وقد أتاك رسولُ ربك ، لا يَقْرع لك بابًا ، ولا يَهاب لك حِجابًا؟ ولا يَقْبل منك بَدِيلا ، ولا يأخذ منك كَفِيلا، ولا يرْحم لك صغيـرًا ، ولا يُوقّر فيك كبيرًا ؛ حتى يُؤَدِّيك إلى قَعْر مُظلمة ، أرجاؤُها مُوحشة ، كفِعْله بالأمم الخالية ، والقُرون الماضية.

---

(١) الظعن: من ظعن : سار ، ارتحل ، والظعينة : الراحلة يرتحل عليها ، والمعنى : أمرتم بالسير . (القاموس المحيط ، مادة : ظعن ).

(٢) عيون الأخبار ٢/ ٢٥٦.

أين مَن سعى واجتهد ، وجَمع وعدّد ، وبَنَى وشَيّد ، وزَخرف ونَجّد ، وبالقليل لم يَقْنع ، وبِالكثير لم يُمتَّع؟ أضحَوْا رُفاتًا ، تحت الثرى أمواتًا، وأنتم بكأسهم شاربون ، ولسبيلهم سالكون.

عبادَ الله ، فاتّقوا الله ورَاقبوه ، واعملوا لِلْيوم الذي تُسيَّر فيه الجبال، وتَنشق السماء بالغَمام ، وتتَطايَرُ الكُتب عن الأيمان والشمائل[1].

❊ ❊ ❊

(١) العقد الفريد ١/ ٤٩٢.

# المبحث الثالث

# الخطابة في العصر الأموي

# الخطابة في العصر الأموي

## أ ـ ازدهار فن الخطابة في هذا العصر:

ازدهرت الخطابة في هذا العصر ازدهارًا كبيرًا ، وذلك لعوامل عدة أدت إلى هذا الازدهار ، نذكر منها:

١ - أن دولة بني أمية كانت دولة عربية أعرابية ، وكان خلفاؤها وأمراؤها وقوادها معتزين بثقافتهم العربية الإسلامية ، يعرفون للعربية مكانها، وينفرون من الخطأ أو اللحن فيها نفارهم من الضَّيْم ، وقد عرف عدد كبير من السياسيين في هذا العصر بقوته وتميزه في ميدان الخطابة وعلى رأسهم الحجاج بن يوسف الثقفي ، وزياد ابن أبيه ، وخالد بن عبد الله القسري ، وغيرهم.

٢ - كان للصراع المحتدم بين الفرق والأحزاب السياسية أثر بالغ في إذكاء جذوة الخطابة والتفنين في القول في هذا العصر، فإلى جانب خطباء الأمويين كان لكل حزب خطباؤه الذين يدافعون عنه ، ويفندون حجج وآراء خصومه.

٣- أدى اتساع الأمصار ، وكثرة الولاة والقواد في هذا العصر إلى فتح مجال أوسع وأرحب أمام الخطابة والخطباء.

٤ - اتساع مجال القول وإعطاء الخطباء حقهم من الإكرام والتقدير ، فإلى جانب خطباء السياسة كانت خطابة المحافل والوفود تحظى باهتمام

بالغ ، فقد فتح معاوية بن أبي سفيان (رضي الله عنه) بابه على مصراعيه أمام الوفود بشعرائها وخطبائها ، وأجزل العطاء لهؤلاء وأولئك ، وعلى هذا النهج سار خلفاء بني أمية من بعده.

وإلى جانب خطباء السياسة وخطباء المحافل والوفود كان لخطباء الوعظ والقصص مكانة رفيعة ، ويأتي على رأس وعاظ هذا العصر: الحسن البصري[١] ، وفيه يقول الجاحظ : وأما الخطب الدينية فإنا لا نعرف أحدًا يتقدم الحسن البصري فيها [٢].

### ب ـ نماذج من الخطابة في هذا العصر:

#### ١ـ من خطب عمر بن عبد العزيز (رحمه الله) [٣]:

– عَنْ عُبَيْدِ الله بْنِ عُمَرَ ، أَنَّ عُمَرَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ (رَحِمَهُ الله)، خَطَبَ فَقَالَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ الله لَمْ يَبْعَثْ بَعْدَ نَبِيِّكُمْ نَبِيًّا ، وَلَمْ يُنْزِلْ بَعْدَ هَذَا الْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْهِ كِتَابًا ، فَمَا أَحَلَّ الله عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ فَهُوَ حَلَالٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَمَا

---

(١) هو: الحسن بن يسار البصري ، تابعي، كان أبوه يسار من سبي ميسان مولى لبعض الأنصار، ولد بالمدينة ، وكانت أمه ترضع لأم سلمة ، رأى بعض الصحابة وسمع من قليل منهم ، كان ناسكًا، فصيحًا ، عالمًا ، شهد له الإمام أنس بن مالك وغيره ، وكان إمام أهل البصرة ، وولي القضاء بها أيام عمر بن عبد العزيز (رحمه الله)، توفي ١١٠هـ (تهذيب التهذيب ٢ / ٢٤٢ – ٢٧١).

(٢) البيان والتبيين ١/ ٣٥٤.

(٣) هو: عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم ، قرشي من بني أمية ، لُقِّب بالخليفة الصالح ؛ لعدله وحزمه ، معدود من كبار التابعين ، ولد ونشأ بالمدينة ، وولي إمارتها للوليد ، ثم استوزره سليمان بن عبد الملك ، وولي الخلافة بعهدٍ من سليمان سنة ٩٩هـ فبسط العدل ، وسكّن الفتن ، توفي ١٠١ هـ. (انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد ٥/ ٢٥٣، دار الكتب العلمية).

حَرَّمَ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ فَهُوَ حَرَامٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

أَلَا وَإِنِّي لَسْتُ بِقاضٍ ، وَلَكِنِّي مُنَفِّذٌ ، وَلَسْتُ بِمُبْتَدِعٍ ، وَلَكِنِّي مُتَّبِعٌ ، وَلَسْتُ بِخَيْرٍ مِنْكُمْ ، غَيْرَ أَنِّي أَثْقَلُكُمْ حِمْلًا.

أَلَا وَإِنَّهُ لَيْسَ لِأَحَدٍ مِنْ خَلْقِ الله أَنْ يُطَاعَ فِي مَعْصِيَةِ الله ، أَلَا هَلْ أَسْمَعْتُ؟[1].

– خطبة لعمر بن عبد العزيز (رحمه الله)، وهي آخر خطبة خطبها:

حمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس: إنكم لم تخلقوا عبثًا ولم تتركوا سدى ، وإن لكم معادًا يحكم الله بينكم فيه ، فخاب وخسر من خرج من رحمة الله التي وسعت كل شيء ، وحُرم جنة عرضها السماوات والأرض.

واعلموا أن الأمان غدًا لمن خاف اليوم ، وباع قليلا بكثير وفانيًا بباقٍ ...؛ حتى يرد على خير الوارثين ، ثم إنكم في كل يوم تشيعون غاديًا ورائحًا إلى الله قد قضى نحبه وبلغ أجله ، ثم تغيبونه في صدع[2] في الأرض ، ثم تدعونه غير موسد ولا ممهد ، قد خلع الأسباب ، وفارق الأحباب ، وواجه الحساب ، غنيًّا عما ترك ، فقيرًا إلى ما قدم .

وَايْم الله إني لأقول لكم هذه المقالة وما أعلم عند أحد منكم أكثر مما عندي ، فأستغفر الله لي ولكم ، وما تبلغنا حاجة يتسع لها ما عندنا إلا

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز على ما رواه الإمام مالك بن أنس وأصحابه ، لأبي محمد المصري ، ص٤٠، تحقيق/ أحمد عبيد، عالم الكتب ، بيروت ، لبنان ، ط: ٦، ١٤٠٤هـ – ١٩٨٤م.

(٢) الصدع (بفتح فسكون): الشق.

سددناها ، ولا أحد منكم إلا وددت أن يده مع يدي ولحمتي[1] الذين يلونني حتى يستوي عيشنا وعيشكم.

وايم الله إني لو أردت غير هذا من عيش أو غضارة [2] لكان اللسان به ناطقًا ذلولا عالمًا بأسبابه ، ولكنه مضى من الله كتاب ناطق وسنة عادلة ؛ دل فيها على طاعته ، ونهى فيها عن معصيته ، ثم بكى ، فتلقى دموع عينيه بردائه ونزل[3].

### ٥- من خطب الحسن البصري (رحمه الله):

– من خطبة جامعة للحسن البصري (رحمه الله)، قال بعد حمد الله والثناء عليه : يا ابن آدم ، بع دنياك بآخرتك تربحهما جميعًا ، ولا تبع آخرتك بدنياك فتخسرهما جميعًا ، يا ابن آدم ، إذا رأيت الناس في الخير فنافسهم فيه ، وإذا رأيتهم في الشر فلا تغبطهم عليه .

الثواء[4] هنا قليل ، والبقاء هناك طويل ، أمتكم آخر الأمم وأنتم آخر أمتكم ، وقد أسرع بخياركم ، فماذا تنتظرون ؟ .

هيهات هيهات ، ذهبت الدنيا بحاليها ، وبقيت الأعمال قلائد في أعناق بني آدم ، فيا لها من موعظة لو وافقت من القلوب حياة.

---

(١) اللحمة (بضم فسكون): القرابة.

(٢) الغضارة (بفتح العين): النعمة والسعة.

(٣) تاريخ الطبري ٦ / ٥٧٠-٥٧١، وانظر: عيون الأخبار ٢/ ٢٦٨.

(٤) الثواء (بالفتح والمد): الإقامة.

أما إنه والله لا أمة بعد أمتكم ، ولا نبي بعد نبيكم ، ولا كتاب بعد كتابكم، أنتم تسوقون الناس والساعة تسوقكم ، وإنما ينتظر بأولكم أن يلحقه آخركم[1].

- ومن خطبة أخرى للحسن البصري (رحمه الله)؛ إذ خرج يومًا على أصحابه وهم مجتمعون ، فقال:

والله لو أن رجلًا مِنْكُم أدرك من أدركت من القرن الأول ، ورأى مَن رأيت من السلف الصالح ؛ لأصبحَ مَهْمُومًا ، وأمسى مغمومًا ، وعلم أن المُجِدّ منكم كاللاعب ، والمجتهد كالتارك .

أيها الناس: إنّ لله عبادًا قلوبهم محزونة ، وشرورهم مأمونة ، وأنفسهم عفيفة ، صَبروا الأيام القلائل لما رجوه في الدهور الأطاول.

أما الليل فقائمون على أقدامهم ، يتضرعون إلى ربهم ؛ ويَسْعَونَ في فكاك رقابهم ، تجري من الخشية دموعهم ، وتخفق من الخوف قلوبهم.

وأما النهار فحلماء أتقياء أخفياء يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف ، تخالهم من الخشية مرضى وما بهم من مرض ، ولكنهم اختصوا بذكر النار وأهوالها.

لقد كانوا فيما أُحِلّ لهم أزهد منكم فيما حُرِّم عليكم ، وكانوا أبصر بقلوبهم لدينهم منكم لدنياكم بأبصاركم ، ولَهم كانوا لحسناتهم أن تردّ عليهم

(١) جمهرة خطب العرب ، أحمد زكي صفوت ٢/ ٤٨٥ .

أخوف منكم أن تعذبوا على سيئاتكم ، أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون[1].

**٦ـ من خطبة للحجاج بن يوسف الثقفي**[2]:

- حمد الله وأثنى عليه ثم قال:

إنَّ الله كفانا مَئُونة الدنيا ، وأمرنا بطَلَب الآخرة ، فليت الله كفانا مئونة الآخرة ، وأمرنا بطلب الدنيا.

ما لي أرى عُلماءكم يُدهنون [3]، وجُهالكم لا يَتعلمون ، وشِرارَكم لا يَتُوبون!

ما لي أراكم تَحْرِصون على ما كُفِيتم ، تُضيِّعون ما به أمِرْتم ! إنَّ العِلْم يُوشك أن يُرفع ، ورَفْعه ذهابُ العلماء .

ألا وإنّ الدُّنيا عَرَض حاضر، يأكل منها البَرّ والفاجِر ، ألَا وإنَ الآخرةَ أجَلٌ مُستأخر ، يَحكم فيه مَلِك قادر.

---

(١) الخطابة أصولها وتاريخها وأزهر عصورها عند العرب، محمد أبو زهرة ، ص ٣٢٨- ٣٢٩، دار الفكر العربي ، ط:٢، ١٩٨٠م.

(٢) هو: أبو محمد الحجاج بن يوسف بن الحكم الثقفي، ولد سنة ٤٠هـ، وقيل: ٤١هـ ، انتقل إلى الشام فلحق بروح بن زنباع نائب عبد الملك بن مروان فكان في عديد شرطته ، ثم ما زال يظهر حتى قلَّده عبد الملك أمر عسكره ، ثم ولَّاه عبد الملك مكة والمدينة والطائف والعراق وخراسان ، فلما توفي عبد الملك وتولى الوليد أبقاه على ما بيده ، وتوفي في رمضان ، وقيل: في شوال ، سنة ٩٥هـ. (انظر: وفيات الأعيان لابن خلكان ٢/ ٥٣، دار صادر ، بيروت).

(٣) الإدهان: اللين والمصانعة. قال الله تعالى: ﴿ وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴾. (العين ٤/ ٢٧).

ألاَ فاعملوا وأنتم من الله على حَذَر، واعلموا أنّكم مُلاقوه ، ليَجْزي الذين أساءوا بما عَمِلوا ، ويجزِي الذين أحسنوا بالحُسنى.

ألَا وإِنَّ الخيرَ كلَّه بحذافيره في الجَنَّة ، ألاَ وإنَ الشر كله بحذافيرهِ في النار.

ألاَ وإن مَن يَعمل مِثْقال ذَرّة خيرًا يَرَه ، ومَن يَعملْ مِثْقال ذَرّة شرًّا يَرَه، وأستغفر الله لي ولكم[1].

❊ ❊ ❊

(١) العقد الفريد ٢/ ١٩.

# المبحث الرابع
# الخطابة في العصر العباسي

# الخطابة في العصر العباسي

في السنة الثانية والثلاثين بعد المائة من الهجرة النبوية انتقلت الخلافة من الشام إلى العراق ، من بني أمية الذين كانت دولتهم عربية أعرابية إلى بني العباس الذين أقاموا دولتهم بمساندة الفرس وتأييدهم ، فكان طبعيًّا أن يكافئهم العباسيون بتولية بعض المناصب والأمور المهمة كإمارة الأقاليم ، وقيادة الجيوش، والحجابة ، والقضاء ، ونحو ذلك .

وظل الفرس يعملون بمكر ودهاء ، ويتسللون إلى المناصب الهامة حتى صار نفوذهم قويًّا وبأسهم مخشيًّا ، وأحس بذلك الخليفة الرشيد فعجَّل بهم ، ونكل برءوسهم فيما يعرف بنكبة البرامكة [(١)]، ثم عاد نجمهم للظهور بعد أن ناصروا المأمون ووقفوا إلى جانبه في محاربة أخيه الأمين حتى تحقق لهم بعض ما أرادوا ، ولكن المأمون كان فطنًا أريبًا فانقلب بعد مقتل أخيه على السياسة الفارسية ، وترك عاصمته مرو ، وعاد إلى بغداد سنة ٢٠٤هـ[(٢)]، غير أن النفوذ الفارسي في الدولة والجيش والحياة لم يضعف، فلما جاء المعتصم حاول السيطرة على الأمور والقضاء على نفوذ الفرس فاستعان بالأتراك الذين كانوا أشد خطرًا على الدولة العربية من الفرس ، فكان كما قال المتنبي[(٣)]:

---

(١) راجع في نكبتهم : تاريخ الطبري ٨ / ٢٨٧ وما بعدها ، والعصر العباسي الأول ، د/ شوقي ضيف ، ص ٢٤.

(٢) راجع: تاريخ الأدب العربي ، لعمر فروخ ٢/ ٣٦.

(٣) ديوان المتنبي: شرح البرقوقي ٢/ ١٠، ط دار الكتاب العربي، بيروت ، سنة ١٤٠٠هـ-١٩٨٠م.

ومن يجعل الضرغام بازًا لصيده تصيده الضرغام فيما تصيدا

أما الحياة الثقافية فقد ازدادت عمقًا واتساعًا تبعًا لتحضر العقلية العربية ووقوفها على ثقافات الأمم الأخرى ، واطِّلاعها على علوم هذه الأمم وحضارتها ، وفي ظل هذه الحياة نشطت الحركة الأدبية شعرًا وخطابة وكتابة نشاطًا عظيمًا في العصر العباسي الأول ، وطرف يسير من العصر العباسي الثاني ، حتى تغلغل فيه الأعاجم فتغيرت الأمور والأحوال السياسية والثقافية والأدبية والخطابية على حد سواء.

ومن أهم العوامل التي ساعدت على ازدهار الفنون الأدبية بصفة عامة والخطابة بصفة خاصة في العصر العباسي الأول:

١. **نشاط البيئة العلمية واللغوية**:

إن الحركة العلمية واللغوية التي نشأت في العصر الأموي قد نمت وازدهرت وآتت أكلها في العصر العباسي ، فقد كثر أعلام اللغة والنحو والبلاغة والنقد ، وكانت مجالس الخلفاء تكتظ باللغويين من أمثال الكسائي والأصمعي والفراء واليزيدي وغيرهم ، كما كانت مجالس خلفاء وولاة بني العباس فسيحة للأدباء من الشعراء والخطباء والنقاد ؛ مما أسهم في ازدهار فنون القول شعرًا وخطابة وكتابة.

ومن نماذج نشاط البيئة العلمية واللغوية ما ذكره النضر بن شميل ، قال: كنت أدخل على المأمون في سمره ، فدخلت عليه ذات ليلة ... فأجرينا

الحديث إلى أن أخذ المأمون في ذكر النساء ، فقال : حدثنا هشيم عن مجالد عن الشعبي عن ابن عباس(رضي الله عنهما)، قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : " إذا تزوج الرجل المرأة لدينها وجمالها كان فيها سَداد من عوز"، فقلت : صدق يا أمير المؤمنين هشيم ، حدثنا عوف بن أبي جميلة عن الحسن بن علي بن أبي طالب (رضي الله عنهما) أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال : إذا تزوج الرجل المرأة لدينها وجمالها كان فيها سِداد من عوز ، قال: وكان المأمون متكئًا فاستوى جالسًا ، فقال : يا نضر كيف قلت سَداد؟ قلت : يا أمير المؤمنين ، السَّداد هنا لحن ، قال : ويحك أتلحنني؟ قلت: إنما لحن هشيم – وكان لحّانة – فتبع أمير المؤمنين لفظه ، قال : فما الفرق بينهما؟ قلت: السداد (بفتح السين) : القصد في الدين والسبيل ، والسداد (بكسر السين): البلغة ، وكل ما سددت به شيئًا فهو سداد ، قال: وتعرف العرب هذا؟ قلت: نعم ، العرجي يقول:

أضاعوني وأي فتى أضاعوا　　ليوم كريهة وسِداد ثغر

فقال المأمون: قبّح الله من لا أدب له ، ثم أطرق مليًّا ، ثم سأله عن أخلب بيت قالته العرب ، وعن أنصف بيت ، وعن أقنع بيت ، والنضر يجيب بما يستحسنه المأمون ، فأخذ المأمون القرطاس وكتب له كتابًا ، وقال لخادمه: تبلغ معه إلى الفضل بن سهل ، يقول النضر: فأتيت الفضل بالكتاب ، فقال: يا نضر، إن أمير المؤمنين أمر لك بخمسين ألف درهم ، فما كان

السبب؟ فأخبرته ، ولم أكذبه ، فقال: لحنت أمير المؤمنين؟ فقلت: كلا ، إنما لحن هشيم – وكان لحانة – فتبع أمير المؤمنين لفظه ، وقد تتبع الفقهاء ، فأمر لي الفضل بثلاثين ألفًا ، فأخذت ثمانين ألفًا بحرف استفاده مني[1].

**٢. الصراعات السياسية:**

لم تسلم الدولة العباسية من مناوأة الثوّار والخارجين ، فقد تعرضت لثورات عديدة كدرت صفوها في كثير من الأوقات ، وكان العلويون عدوًّا لدودًا لهذه الدولة ، يتهددها ويتحين الفرصة للانقضاض عليها ، ولم يكد العباسيون يستولون على مقاليد الخلافة حتى أخذ العلويون يشيعون في الناس أنهم اغتصبوها منهم ، فهم ورثتها الحقيقون ؛ إذ هم أبناء فاطمة بنت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وأبناء علي ابن عمه[2].

وقد توالت ثورات العلويين وظلوا شوكة قوية في ظهر الدولة العباسية حتى أسسوا الدولة الفاطمية في بلاد المغرب ثم استولوا على مصر والشام[3].

وقد كان لهذا الصراع السياسي الدامي بين العباسيين والعلويين في أوائل هذا العصر أثر كبير في نهضة الخطابة وقوتها ، فقد وقف بجانب العباسيين فريق كبير من الخطباء يدافعون عنهم ، وينكرون على العلويين

---

(١) ديوان المعاني لأبي هلال العسكري ١/ ١٠-١٢ بتصرف.

(٢) انظر: العصر العباسي الأول د/ شوقي ضيف ، ص ٢٦.

(٣) انظر: عصر الدول والإمارات "مصر – الشام"، د/ شوقي ضيف ، ص ٢٢-٢٣.

حقهم في الخـلافة ، في حين كان لخصومهم ومناوئيهم خطباؤهم الذيـن يدافعون عنهم ويؤيدون رؤاهم وقضاياهم .

ولم يكن العلويون هم العدو الأوحد للدولة العباسية ، فقد كان الفرس يشكلون خطرًا كبيـرًا لا يقل عن خطر العلويين ، حيث توالت ثوراتهم بعد مقتل أبي مسلم الخراساني ، وكانت ثورات بابك الخرمي التي اندلعت في أذربيجان سنة ٢٠١هـ من أعنف الثورات التي هبَّت في وجه الدولة العباسية[١].

وهناك أعداء آخرون كانوا يثورون على الدولة بين الحين والحين ، كتلك البقية التي بقيت من الخوارج ، وإن كانت شوكتهم ضعفت في هذا العصر؛ نظرًا لكثرة ما تلقوه من ضربات في العصر الأموي[٢].

على أننا لا ننسى الصراع الدامي بين الأمويين والعباسيين ، والذي انتهى باستيلاء بني العباس على مقاليد الحكم ، وإن كان هذا الصراع قد حسم سياسيًّا لصالح بني العباس ، فإن محاولات الحشد المجتمعي والسجال الفكري قد ظلت آثارها ممتدة لعقود ، وكانت واضحة أشد الوضوح في أوائل العصر العباسي الأول.

---

(١) راجع: تاريخ الطبري ٨/ ٥٥٦ ، ٩/ ١٣ – ٢٣، وتاريخ الأدب العربي ، د/ شوقي ضيف ، ص٤١.

(٢) انظر: تاريخ الأدب العربي ، د/ شوقي ضيف ، ص ٣٢– ٣٣.

كما أن الصـراعات التي دارت بين العباسـيين أنفسهم كانت ذات أثـر واضح في إذكاء جـذوة الشـعر ، فحين احتـدم الصـراع بين الأمين والمأمون كان لكل منهما خطباؤه الذين يؤيدونه ويوالونه قولا وعملا.

وقد أسهمت كل هذه الصـراعات في إذكاء فنون القـول ، ولا سيما الشعر والخطابة اللذين حاول كل فريق أن يستخدمهم لتقوية موقفه ، وحشد المؤيدين له ، وتفنيد حجج خصومه .

٣. **ازدهار حركة التأليف والترجمة**:

اتسعت في هـذا العصـر آفـاق العرب نتيـجة احتكاكهـم بالشعوب الأخرى ، ونشطت حركة الترجمة في نقل علوم وآداب هذه الشعوب ؛ مما كان له أثر واضح في نهضة الحركة العلمية والفكرية بصفة عامة ، وبالطبع انعكس ذلك على ثقافة الخطباء ، وتجلى أثره في نمط خطبهم وقدرتهم على التفنن فيها ، وأخذنا نرى الخطب الطوال التي صارت سمةً أكثر بروزًا منها في أي عصر مضى .

٤. **اتساع نطاق الكتابة والتدوين وظهور جماعات الورّاقين** :

أسهم اتساع نطاق الكتابة والتدوين وظهور جماعات الوراقين في تسجيل الخطب الطوال التي كان يصعب على الذاكرة الحافظة الاحتفاظ بها لوقت طويل على عكس الشعر الأيسـر حفظًا من الخطابة ؛ نظرًا لإيقاعاته المؤثرة المعينة بطبيعتها على الحفظ أكثر من أي فن أدبي آخر.

**أ ـ نماذج من الخطابة في هذا العصر**:

- **من خطب الخليفة المهدي**[1]:

الحمد لله الذي ارتضى الحمد لنفسه ، ورضي به من خلقه ، أحمده على آلائه، وأمجّده لبلائه ، وأستعينه وأؤمن به ، وأتوكل عليه توكّل راض بقضائه ، وصابر لبلائه.

وأشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، وأن محمدًا عبده المصطفى، ونبيه المجتبى ، ورسوله إلى خلقه ، وأمينه على وحيه ؛ أرسله بعد انقطاع الرجاء ، وطموس العلم ، واقتراب من الساعة ، إلى أمّة جاهلية أمية ، أهل عداوة وتضاغن ، وفرقة وتباين ، قد استهوتهم شياطينهم ، وغلب عليهم قرناؤهم ، فاستشعروا الرّدى ، وسلكوا العمى ، يبشّر من أطاعه بالجنة وكريم ثوابها ، وينذر من عصاه بالنار وأليم عقابها ﴿ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ الله لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[2].

---

(١) هو: أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس بن عبد المطلب بن هاشم، المهدي ، ابن المنصور، بويع بالخلافة عند موت أبيه بالحجاز سنة ١٥٩هـ ، وقدم إلى دمشق في خلافته ومضى إلى بيت المقدس ، وأخذ في رد المظالم ، وإخراج ما في الخزائن ، وأمر ببناء مسجد الرصافة ، وتزوّج ريطة ابنة عمّه ، والخيزران ولدت له موسى الهادي وهارون الرشيد. وتزوّج أمّ عبد الله بنت صالح أخت الفضل وعبد الله ، وتوفي بالحمى سنة ١٦٩هـ ، وعمره ٤٣ سنة. ( انظر: تاريخ دمشق ، لابن عساكر ، ٥٣/ ٤١١، دار الفكر ، بيروت ، ١٩٩٥م).

(٢) سورة الأنفال ، الآية : ٤٢ .

أوصيكم عباد الله بتقوى الله ، فإن الاقتصار عليها سلامة ، والترك لها ندامة ؛ وأحثّكم على إجلال عظمته ، وتوقير كبريائه وقدرته ، والانتهاء إلى ما يقرّب من رحمته وينجي من سخطه ، وينال به ما لديه من كريم الثواب وجزيل المآب .

فاجتنبوا ما خوّفكم الله من شديد العقاب ، وأليم العذاب ، ووعيد الحساب؛ يوم توقفون بين يدي الجبار، وتعرضون فيه على النار، يوم لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ. فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ؛ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ، وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ، وَصاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ. لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ؛ يوم لا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلا يُقْبَلُ مِنْها عَدْلٌ وَلا تَنْفَعُها شَفاعَةٌ وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ؛ يوم لا يَجْزِي والِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلا مَوْلُودٌ هُوَ جازٍ عَنْ والِدِهِ شَيْئًا. إِنَّ وَعْدَ الله حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا وَلا يَغُرَّنَّكُمْ بِالله الْغَرُورُ ؛ فإن الدنيا دار غرور ، وبلاء وشرور، واضمحلال وزوال ، وتقلّب وانتقال؛ قد أفنت من كان قبلكم ، وهي عائدة عليكم وعلى من بعدكم ؛ من ركض إليها صرعته، ومن وثق بها خانته ؛ ومن أملها كذبته ، ومن رجاها خذلته؛ عزّها وغناها فقر؛ والسعيد من تركها ، والشقيّ فيها من آثرها ، والمغبون فيها من باع حظّه من دار آخرته بها.

فالله عباد الله والتوبة مقبولة ، والرحمة مبسوطة ، وبادروا بالأعمال الزكية في هذه الأيام الخالية قبل أن يؤخذ بالكظم ، وتندموا فلا تقالون بالندم ، في يوم حسرة وتأسّف وكآبة وتلهّف ؛ يوم ليس كالأيام ، وموقف ضنك المقام.

إن أحسن الحديث وأبلغ الموعظة كتاب الله ؛ يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[1]. أعوذ بالله العظيم من الشيطان الرجيم ، بِسْمِ الله الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقابِرَ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ثُمَّ لَتُسْئَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ [2].

أوصيكم عباد الله بما أوصاكم الله به ، وأنهاكم عما نهاكم الله عنه ، وأرضى لكم طاعة الله ، وأستغفر الله لي ولكم[3].

**٢ـ من خطب هارون الرشيد** [4]:

– الحمد لله ، نحمده على نعمه ، ونستعينه على طاعته ، ونستنصره على أعدائه ، ونؤمن به حقًّا ، ونتوكل عليه مفوّضين إليه ، وأشهد أن لا إله إلا

---

(١) الأعراف: ٢٠٤ .

(٢) سورة التكاثر .

(٣) العقد الفريد ٤/ ١٨٨ – ١٩٠.

(٤) هو: هارون بن محمد (المهدي) ابن أبي جعفر المنصور العباسي: خامس خلفاء الدولة العباسية في العراق، وأشهرهم ، بويع له بالخلافة ليلة مات أخوه ، وذلك سنة ١٧٠هـ، وعمره يومئذ ثنتان وعشرون سنة، وبلغت الدولة في أيامه قمة أوجها وعظمتها واستقرارها، وكان شجاعًا، قاد الجيوش وهو في سن العشرين ، وكان تقيًّا يخشى الله في أموره كلها، ومن فضائله: رعايته للعلم وتأسيسه "بيت الحكمة" الذي انبعثت منه الشعلة التي أضاءت الطريق للنهضة الأوربية فيما بعد، وتُوفِّي سنة ١٩٣هـ. وعمره خمس وأربعون سنة. (انظر: تاريخ الرسل والملوك ، وصلة تاريخ الطبري لأبي جعفر الطبري ٨/ ٢٣٠-٢٣٤).

الله وحده لا شريك له ؛ وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

بعثه الله على فترة من الرسل ، ودروس من العلم ، وإدبار من الدنيا ، وإقبال من الآخرة ؛ بشيـرًا بالنعيم المقيم ؛ ونذيـرًا بين يدي عذاب أليم ، فبلّغ الرسالة ، ونصح الأمّة ، وجاهد في الله ، فأدّى عن الله وعده ووعيده حتى أتاه اليقين ؛ فعلى النّبي من الله صلاة ورحمة وسلام .

أوصيكم عباد الله بتقوى الله ؛ فإن في التقوى تكفير السيئات ، وتضعيف الحسنات ، وفوزًا بالجنة ، ونجاة من النار ؛ وأحذركم يومًا تشخص فيه الأبصار ، وتبلى فيه الأسرار ، يوم البعث ويوم التغابن ، ويوم التلاق ، ويوم التناد ، يوم لا يستعتب من سيئة ولا يزداد في حسنة ؛ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَناجِرِ كاظِمِينَ ما لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلا شَفِيعٍ يُطاعُ يَعْلَمُ خائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَما تُخْفِي الصُّدُورُ ،... وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى الله ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ ما كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ .

عباد الله ، إنكم لم تخلقــوا عبثًـا ، ولن تتركوا سدى ؛ حصّنوا إيمانكم بالأمانة ، ودينكم بالورع ، وصلاتكم بالزكاة ؛ فقد جاء في الخبر أن النبي (صلّى الله عليه وسلم) قال : "لا إيمان لمن لا أمانة له ، ولا دين لمن لا عهد له، ولا صلاة لمن لا زكاة له"، إنكم سفر مجتازون وأنتم عن قريب تنتقلون من دار فناء إلى دار بقاء ، فسارعوا إلى المغفرة بالتوبة ، وإلى الرحمة بالتقوى ، وإلى الهدى بالإنابة ، فإن الله تعالى ذكره أوجب رحمته للمتقين، ومغفرته

للتائبين ، وهداه للمنيبين ، قال الله (عز وجل) وقوله الحق: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُها لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكاةَ﴾[1]. وقال: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صالِحاً ثُمَّ اهْتَدى﴾[2].

وإياكم والأماني ، فقد غرّت وأزدت وأوبقت كثيـرًا حتى أكذبتهم مناياهم ، فتناوشوا التوبة من مكان بعيد ، وحيل بينهم وبين ما يشتهون؛ فأخبركم ربّكم عن المثلات فيهم ، وصرف الآيات ، وضرب الأمثال ، فرغّب بالوعد وقدّم إليكم الوعيد ، وقد رأيتم وقائعه بالقرون الخوالي جيلا فجيلا ، وعهدتم الآباء والأبناء والأحبة والعشائر باختطاف الموت إياهم من بيوتكم ، ومن بين أظهركم ، لا تدفعون عنهم، ولا تحولون دونهم، فزالت عنهم الدنيا ، وانقطعت بهم الأسباب ، فأسلمتهم إلى أعمالهم عند الموقف والحساب والعقاب ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَساءُوا بِما عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾[3].

إنّ أحسن الحديث وأبلغ الموعظة كتاب الله ، يقول الله (عز وجل): ﴿وَإِذا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[4]. أعوذ بالله

---

(١) سورة الأعراف ، الآية : ١٥٦.

(٢) سورة طه ، الآية: ٨٢ .

(٣) سورة النجم ، الآية : ٣١ .

(٤) سورة الأعراف ، الآية : ٢٠٤ .

العظيم من الشيطان الرجيم إنه هو السميع العليم ، بسم الله الرحمن الرحيم ﴿قُلْ هُوَ الله أَحَدٌ، الله الصَّمَدُ، لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ﴾ [1]، آمركم بما أمركم الله به ، وأنهاكم عما نهاكم الله عنه، وأستغفر الله لي ولكم[2].

**٣ـ من خطب المأمون** [3]:

– خطب المأمون في يوم جمعة فقال:

الحمد لله مستخلص الحمد لنفسه ، ومستوجبه على خلقه ؛ أحمده وأستعينه ؛ وأؤمن به وأتوكل عليه ؛ وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ؛ أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون.

---

(١) سورة الإخلاص .

(٢) العقد الفريد لابن عبد ربه الأندلسي ٤/ ١٩٠– ١٩٢ .

(٣) هو: عبد الله بن هارون الرشيد، ولد سنة ١٧٠هـ ، وكان يكنى: أبا العباس، ويُلقب بالمأمون. تلقى العلوم العربية ، وأظهر نبوغًا خلال دراسته ، وتدرَّب على فنون القتال والنزال وقيادة الجند، اتصف بالعفو والحلم حتى اشتهر بذلك، وكان للمأمون ولعٌ بالأمور العلمية والفلسفية ، فكان يعقد مجالس المناظرة ويبعث في طلب العلماء والأعلام من بيزنطة لحضورها، وأقام مكتبة ضخمة في بيت الحكمة، وجهازًا كبيرًا للترجمة من مختلف اللغات إلى اللغة العربية، حشد له نحو سبعين مترجمًا. تُوفِّي سنة ٢١٨هـ. (انظر: التنبيه والإشراف ، أبو الحسن على بن الحسين ابن على المسعودي ، ص ٣٠٢ – ٣٠٥، تصحيح/ عبد الله إسماعيل الصاوي ، دار الصاوي – القاهرة ، وتاريخ دمشق ، لابن عساكر ٣٣/ ٣١٢).

أوصيكم عباد الله ونفسي بتقوى الله وحده ، والعمل لما عنده ، والتنجّز لوعده، والخوف لوعيده ؛ فإنه لا يسلم إلا من اتقاه ورجاه ، وعمل له وأرضاه.

فاتقوا الله عباد الله ، وبادروا آجالكم بأعمالكم ؛ وابتاعوا ما يبقى بما يزول عنكم ويفنى ، وترحلوا عن الدنيا فقد جدّ بكم ، واستعدّوا للموت فقد أظلّكم ، وكونوا كقوم صِيح فيهم فانتبهوا ، وعلموا أن الدنيا ليست لهم بدار فاستبدلوا ، فإن الله (عز وجل) لم يخلقكم عبثًا ، ولم يترككم سدى، وما بين أحدكم وبين الجنة والنار إلا الموت أن ينزل به.

وإن غاية تنقصها اللحظة وتهدمها الساعة الواحدة لجديرة بقصر المدّة ، وإن غائبًا يحدوه الجديدان الليل والنهار لجدير بسرعة الأوبة ، وإن قادمًا يحل بالفوز أو بالشقوة لمستحق لأفضل العدّة ، فاتقى عبد ربَّه ونصح نفسه وقدّم توبته وغلب شهوته ، فإن أجله مستور عنه ، وأمله خادع له ، والشيطان موكّل به يزيّن له المعصية ليركبها ، ويمنّيه التوبة ليسوّفها ، حتى تهجم عليه منيته أغفل ما يكون عنها.

فيا لها حسرة على كل ذي غفلة أن يكون عمره عليه حجة ، أو تؤدّيه أيامه إلى شقوة.

نسأل الله أن يجعلنا وإياكم ممن لا تبطره نعمة ، ولا تقصّر به عن طاعة ربه غفلة ، ولا يحل به بعد الموت فزعة ، إنه سميع الدعاء ، بيده الخير وهو على كل شيء قدير، فعّال لما يريد(1).

---

(1) العقد الفريد ٢/ ١٢.

- خطبة للمأمون أيضًا يوم عيد الأضحى ، قال فيها بعد التكبير والتحميد:

إن يومكم هذا يوم أبان الله فضله ، وأوجب تشريفه ، وعظّم حرمته ، ووفّق له من خلقه صفوته ، وابتلى فيه خليله ، وفدى فيه من الذبح العظيم نبيّه ، وجعله خاتم الأيام المعلومات من العشر، ومقدّم الأيام المعدودات من النفر، يوم حرام من أيام عظام في شهر حرام ، يوم الحج الأكبر ، يوم دعا الله إلى مشهده ، ونزل القرآن العظيم بتعظيمه ، قال الله (عز وجل): ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجالًا وَعَلى كُلِّ ضامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾[1].

فتقرّبوا إلى الله في هذا اليوم بذبائحكم ، وعظّموا شعائر الله ، واجعلوها من طيّب أموالكم ، وبصحة التقوى من قلوبكم ، فإنه يقول: ﴿لَنْ يَنالَ اللهَ لُحُومُها وَلا دِماؤُها وَلكِنْ يَنالُهُ التَّقْوى مِنْكُمْ﴾[2].

ثم التكبير والتحميد، والصلاة على النبي (صلّى الله عليه وسلم)، والوصية بالتقوى ، ثم ذكر الموت .

ثم قال: وما من بعده إلا الجنة أو النار، عظم قدر الدارين ، وارتفع جزاء العملين ، وطالت مدة الفريقين ؛ الله الله ، فوالله إنه الجدّ لا اللّعب ، والحقّ لا الكذب ، وما هو إلا الموت والبعث والميزان والحساب والصراط والقصاص والثواب والعقاب ؛ فمن نجا يومئذ فقد فاز ، ومن هوى

(١) سورة الحج ، الآية : ٢٧ .

(٢) سورة الحج ، الآية : ٣٧ .

يومئذ فقد خاب ، الخير كلّه في الجنة ، والشـرّ كله في النار[1].

**ضَعف الخطابة في العصر العباسي الثاني مع غلبة الأعاجم عليه**:

مع دخول العصر العباسي الثاني خفت صوت الخطابة السياسية ، فلم يعد صوت الخلفاء فيها عاليًا ، وتنحى أغلب خلفاء العصر العباسي الثاني عن خطب الجمع والمناسبات الدينية إلا ما كان من الخليفة المهتدي الذي وَلِي الخلافة (٢٥٥- ٢٥٦هـ)، أو الخليفة الراضي الذي تولَّى الخلافة (٣٢٢-٣٢٩هـ)، كما انتهت إلى حد كبير خطب المحافل والوفود التي كانت تفد على خلفاء بني أمية ، وفي جانب من صدر دولة بني العباس ، حيث اعتمدت الدولة العباسية في قوامها على الأعاجم أكثر من العرب ، فلم يعد لخطابة المحافل والوفود موضع يُذكر ، ولا سيما في العصـر العباسي الثاني .

وكادت الخطابة تنزوي في المساجد ومجالس القُصَّاص والوُعَّاظ والمناسبات الاجتماعية كخطب عقد الزواج والصلح بين الناس ونحو ذلك.

❊ ❊ ❊

(١) العقد الفريد ٤/ ١٩٢ – ١٩٣.

# المبحث الخامس
# الخطابة في العصر الحديث

## الخطابة في العصر الحديث

يؤرخ كثير من الكُتّاب للنهضة الأدبية الحديثة بقدوم الحملة الفرنسية إلى مصر سنة ١٧٩٨م ، على أننا نؤكد أن هذا التأريخ لا يعدو سبيل التقريب، فإن بوادر اليقظة العربية كانت قد بدأت في الظهور في أواخر القرن الثامن عشر الميلادي قبل قدوم الحملة الفرنسية إلى مصر، فقد بدأ العرب يعملون على الخلاص من الحكم العثماني الغاشم الذي حرم العرب من حقوقهم السياسية ، وأهمل العلم والثقافة ، ولم تمكث الحملة الفرنسية في مصر إلا نحو ثلاثة أعوام ، وهي فترة قصيرة في حساب التاريخ ، ولا يمكن أن تؤدي – وحدها – إلى نتائج حيوية أو آثار عميقة في الثقافة والحضارة، وإن كانت قد ظهرت معالم نهضة ثقافية بعد جلاء الفرنسيين فإن هذه النهضة تعد أثرًا من آثار اليقظة العربية التي ظهرت بوادرها قبل قدوم الفرنسيين(١).

يقول الرئيس الراحل "جمال عبد الناصر" في الميثاق : ولم تكن الحملة الفرنسية على مصر مع مطلع القرن التاسع عشر هي التي صنعت اليقظة المصرية في ذلك الوقت – كما يقول بعض المؤرخين – فإن الحملة الفرنسية حين جاءت إلى مصر وجدت الأزهر يموج بتيارات جديدة تتعدى جدرانه

(١) الوسيط في الأدب العربي وتاريخه ، تأليف الشيخ/ أحمد الإسكندري ، والشيخ مصطفى عناني ، ص٣١٧، ط: ١٧، دار المعارف بمصر.

إلى الحياة في مصر كلها ، كما وجدت أن الشعب المصري يرفض الاستعمار العثماني المُقَنَّع باسم الخلافة ، ولقد وجدت هذه الحملة مقاومة عنيفة لسيطرة المماليك ، كما واجهت تمردًا مستمرًا على محاولاتهم لفرض الظلم على الشعب المصري[1].

ولا يعني ذلك تجاهل أثر الحملة الفرنسية في النهضة العلمية والأدبية الحديثة في مصـر، إنما يعني وضع هذا الأثر في مكانه الصحيح ؛ باعتباره واحدًا من عوامل هذه النهضة ، وليس العامل الأوحد الذي لولاه ما كانت النهضة من أصلها.

**أ ـ عوامل ازدهار الحياة الثقافية في العصر الحديث**:

تعددت العوامل التي أَثَّرت في الحياة الثقافية والفكرية في العصر الحديث: شعرًا ونثرًا ، وخطابة وكتابة ، ومن أهمها:

**١ـ الاتصال بالحضارة الغربية**:

وقد تمثل هذا الاتصال في طرق متعددة ، منها:

- **الحملة الفرنسية**:

لفتت الحملة الفرنسية أنظار المصـريين إلى الحضارة الغـربية ، فقـد اصطحب نابليون معه كل عدد الاستعمار والاستغلال والإيقـاظ ، فقد

---

(١) الميثاق ، الرئيس جمال عبد الناصر، ص ٢١ ، قدمه الرئيس / جمال عبد الناصر إلى المؤتمر الوطني للقوى الشعبية يوم ٢١ مايو ١٩٦٢، الجمهورية العربية المتحدة ، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة ١٩٦٢م ، وانظر: الوسيط في الأدب العربي وتاريخه ، ص ٣١٧.

حرص على أن يزود حملته العسكرية بطائفة من العلماء البارعين المتخصصين في مختلف العلوم التاريخية والطبيعية والرياضية ، ولم يلبث حين نزل مصر أن أسس المجمع العلمي المصري على غرار المجمع العلمي الفرنسي ، وانبعث العلماء الذين قدموا معه يدرسون مصر من جميع جوانبها، وكان ثمرة ذلك تسعة مجلدات طبعت في فرنسا (١٨٠٩-١٨٢٥م) تحت عنوان "وصف مصر" وهي أساس كل المعلومات التي عرفت في أوروبا عن مصر الحديثة .

وقد أنشأ نابليون إلى جانب هذا المجمع العلمي معامل ، ومكتبة ، ومطبعة ، وكانت معاملهم تعنى بالبحث العلمي التجريبي ، وكان الفرنسيون يستدعون المصريين لرؤية ما يُجرون من تجارب كيميائية لا عهد لهم بها ، فيعجبون وينبهرون [1].

كما أنشأ نابليون مسرحًا للتمثيل ، كانوا يمثلون فيه رواية فرنسية كل عشر ليالٍ ، ومدارس لأبناء الفرنسيين ، وصحيفتين ، ومصانع ، ومعملًا للورق ، وأسس مراصد فلكية ، مما أثار دهشة المصريين ، ولفت أنظارهم - بشدة - إلى مظاهر هذه الحضارة الوافدة .

على أننا لا ننسى ما روي عن شراسة رجال هذه الحملة ، وتجاوزاتهم في حق الشعب المصري ، ونهبهم القرى الآمنة ، وإفزاع أهلها ، وفرض

---

(١) الأدب العربي المعاصر في مصر، د/ شوقي ضيف ، ص١٣، ط: دار المعارف بمصر سنة ١٩٧٩م ، الطبعة السابعة .

الضـرائب على الأوقاف الخيرية التي كان يصـرف ريعها على المساجد وطلاب العلم ، وفرض ضرائب على المنازل ؛ مما جعل قلوب المصريين تنفر من نابليون وحملته ، وتنظر إليه نظرة الغاصب المستبد ، فثار المصريون على نابليون وحملته في أكتوبر سنة ١٧٩٨م ، فأخمد ثورتهم في قسوة عارمة ، وعنف وغلظة ، وانتهك حرمة المساجد الإسلامية ؛ مما زاد من كراهية المصريين له ولحملته ، وزادهم عزيمة وإصرارًا على طرد المستعمر الغاصب[1]، فتمكنوا من طرده سنة ١٨٠١م ، ولم يقضِ الفرنسيون في مصر سوى ثلاثة أعوام لم يهدأ في أثنائها بالهم ، ولم تستقر أقدامهم ؛ لما لاقوه من كفاح هذا الشعب المجاهد الوطني الأصيل.

**ـ البعثات العلمية**:

انتاب مصر بعد خروج الفرنسيين منها سنة ١٨٠١م طوارئ مختلفة انتهت بتعيين محمد علي واليًا على مصر سنة ١٨٠٥م ، فأخذ يعمل على توطيد الحكم لنفسه ، وكان همّه منصرفًا في أوائل ولايته إلى المطامع السياسية بالحرب والفتوح ، فلما استقر له الأمر حاول الأخذ بأسباب المدنية الحديثة ، فأنشأ المدارس ، واستقدم الخبراء والمعلمين ، وأرسل البعوث إلى باريس وغيرها من البلاد الأوروبية[2].

---

(١) راجع: في الأدب الحديث لعمر الدسوقي ١/ ١٦-١٨، ط : مطبعة الرسالة ، نشـر دار الفكر العربي، ط: ٨، سنة ١٩٧٠م.

(٢) انظر: تاريخ آداب اللغة العربية لجرجي زيدان ٤/ ١٣، تعليق: د/ شوقي ضيف ، دار الهلال.

وكان محمد علي شديد العناية بأعضاء هـذه البعثات ، يتقصى أخبارهم ، ويتابع أمرهم ، ويكتب لهم من حين لآخر يحثهم على العمل والاجتهاد، وينبههم إلى واجباتهم ، ويلومهم ويعنفهم إن بلغه عنهم شيء من التقصير، ويتعجلهم في قطف ثمار تحصيلهم ؛ وذلك لشدة حاجته إلى جهدهم في النهضة التي كان يريدها ويعمل لها.

وكان أعضاء هذه البعثات يعودون مُزوَّدين بثقافات واسعة ، ومتعددة ، فكان منهم الأطباء والمهندسون والضباط والأدباء ، وقد استطاعوا أن ينقلوا إلى اللغة العربية عشرات الكتب في العلوم المختلفة ؛ مما أحدث نهضة علمية انعكس صداها – بلا شك – على الأدب والنقد.

ومن أبرز المبعوثين "رفاعة الطهطاوي" الذي ألَّف وترجم ما يزيد على عشرين كتابًا في فنون مختلفة، و"علي مبارك" صاحب الخطط التوفيقية، فقد مكث في بعثته أربع سنوات درس فيها فن الهندسة والحرب ، ثم عاد إلى مصر ضابطًا بالجيش ، ثم قدَّم للحكومة المصرية مشروعًا بنظام المدارس المصرية ، فعهدت إليه برئاسة ديوانها ، فكان أول من نظم المدارس المصرية، ومن أعماله العظيمة : إنشاء دار الكتب ، وإنشاء مدرسة دار العلوم ، وتجديد مدينة القاهرة وأمهات مدن القطر بإنشاء شوارعها وميادينها العظيمة ، وإنشاء كثير من الترع والجسور ، كترعتي الإبراهيمية والإسماعيلية ، وكانت وفاته سنة ١٣١١هـ[1].

---

(١) انظر: الوسيط في الأدب العربي وتاريخه ، ص ٣٣٦.

## ـ حركة الترجمة:

اقتضت النهضة الحديثة في عهد محمد علي أن تنقل علوم الغرب إلى اللغة العربية ؛ فأسست مدرسة الإدارة والألسن سنة ١٨٣٦م، وعهد بالإشراف عليها إلى رفاعة الطهطاوي ، وكان أثر هذه المدرسة في حركة الترجمة واضحًا، فقد أربى عدد الكتب المترجمة على ألفي كتاب في مختلف العلوم.

وكان طبعيًّا أن تُعْنَى حركة الترجمة في أول أمرها بالعلوم التي تتطلبها النهضة كالطب ، والهندسة ، وفنون الحرب ، والطبيعيات ، ونحو ذلك مما تقتضيه الحياة المدنية التي كان محمد علي يعمل على إرساء قواعدها.

ومع أن نقل الفنون والآداب قد تأخر بعض الوقت فإن اللغة العربية قد أفادت من حركة الترجمة ، وصارت غنية بالمصطلحات العلمية والأدبية ، وأخذ النثر يتخلص من القيود البديعية الثقيلة التي كان مكبلاً بها ؛ لأن الاهتمام بالمعاني شغل الكُتَّاب- إلى حد ما – عن الزخارف اللفظية.

وفي النصف الثاني من القرن التاسع عشر نشطت حركة المترجمات الأدبية ، فترجم سليمان البستاني إلياذة هوميروس ، وترجم أحمد حسن الزيات "آلام فرتر" لجيته الألماني ، و"رفائيل" للامارتين الفرنسي ، كما ترجم العديد من روايات وأشعار أعلام الأدباء الغربيين من أمثال: شكسبير، وهوجو ، ودوماس ، وموليير ، ولافونتين ، وغيرهم.

كما كان لنزوح بعض الأدباء السوريين إلى مصر أثر واضح في نشاط حركة الترجمة ، فقد قام "أديب إسحاق" و"سليم نقاش" بتأسيس مسرح

عربي، وأخذا يترجمان له ، وكان يعقوب صنوع قد سبقهما إلى تأسيس مسرح بالقاهرة ، واتجه كذلك إلى الأدب الأوروبي .

وقد أثَّرت الترجمة في الأدب وصناعة القول تأثيرًا ملحوظًا في القالب والمعاني والأغراض والأسلوب ، وظهر من يؤثرون المعاني على اللفظ في الشعر والنثر ، واختفت بعض أغراض الشعر الغنائي كالفخر والحماسة والهجاء ، ولم يبقَ من الهجاء إلا مداعبات لطيفة فيها تهكم وسخرية وتصوير لا يتناول المحارم والأغراض ، ولا يقذع أو يفحش ، وتميز بعض الكتاب بالتحليل والدراسات النفسية ، والإفادة من علم الاجتماع والتاريخ وغيرهما في الموضوعات الأدبية التي يتعرضون لها[1].

**٢ـ دور الأزهر الشريف**:

يرجع تاريخ الأزهر الشريف إلى سنة ٣٥٩هـ حين أسسه "جوهر الصقلي" قائد "المعز لدين الله الفاطمي"، واستمر العمل في بنائه نحو عامين ، وأقيمت أول جمعة فيه سنة ٣٦١هـ ، فقد كان الغرض من بنائه أن يكون مسجدًا للعبادة ، ومركزًا للدعوة إلى المذهب الشيعي ، ولكنه سرعان ما تحول إلى معهد للدراسة بأمر من يعقوب بن كلس وزير العزيز بالله الفاطمي ، وقد استمرت هذه الدراسة ما يزيد على قرنين من الزمان حتى جاء صلاح الدين الأيوبي فأغلق الجامع الأزهر منعًا لدراسة

(١) تاريخ الأدب العربي في العصر الحاضر، لأستاذنا الدكتور/ إبراهيم علي أبو الخشب، ص٩٨، الهيئة المصرية العامة للكتب، سنة ١٩٨٤م ، عن كتاب "الأدب والنصوص" لمهدي علام وآخرين.

المذهب الشيعي الذي يخالف مذهبه السني، فظل الجامع الأزهر مغلقًا نحو قرن من الزمان حتى جاء الظاهر بيبرس فجدد من شبابه ، وأعاد إليه حياته العلمية سنة ٦٦٥هـ ، لكن على المذهب السني لا المذهب الشيعي.

وقد تتابعت الدول على الأزهر وهو ينهض برسالته في خدمة الدين واللغة ، حتى في أحلك العصور وأحرج الأوقات ، فقد حاول العثمانيون – عندما حكموا مصر– أن يفرضوا اللغة التركية على أهلها ، فأغلقوا المدارس ، وسلبوا أوقافها ، وعطلوا ديوان الإنشاء ، فظل الأزهر يناهض ظلمهم ، ويعمل جاهدًا على إشعاع التراث الديني، وحفظ اللغة العربية من طغيان التركية ، وقد تخرج في هذه الفترة الحالكة وهذا الظلام الدامس علماء أجلاء من أمثال الشيخ محمد الخراشي، والشيخ عبد الله الشرقاوي ، والشيخ أحمد الدمنهوري ، والشيخ العطار، وغيرهم ، وقد أشار شوقي إلى هذه الفترة بقوله [(١)]:

ظُلُمـــاتٌ لا تَرى في جُنحِهـــا غَيرَ هَذا الأَزهَرِ السَمحِ شِهابـــا
قَسَـم لَولاهُ لَم يَبـــقَ بِهـــا رَجُـلٌ يَقـرَأُ أَو يَدري الكِتابـــا
حَفِـــظَ الدينَ مَلِيًّـــا وَمَضـى يُنقِـــذُ الدُنيا فَلَم يَملِك ذَهابـا

فلما قامت النهضة الحديثة كان الأزهر أعظم عماد لها ، فقد كان علماؤه وأبناؤه من أعظم روَّاد هذه النهضة وقادتها ، فمنهم من كان يدعو إلى

---

(١) الشوقيات ، أحمد شوقي ٢/ ٤٠٩، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة ، القاهرة.

التجديد ومواكبة روح العصر ومتطلباته ، ومنهم من كان يقوم بالتدريس في المدارس التي أنشئت في عهد محمد علي ، ومنهم من كان يقوم بتحرير الصحف ، ومنهم من سافر في البعثات التي أرسلها محمد علي إلى أوروبا، بل كان أحد رجالها رفاعة الطهطاوي على رأس أول بعث علمي أرسله محمد علي إلى باريس سنة ١٢٤١هـ ، وقد مرَّ بنا قول الرئيس الراحل / جمال عبد الناصر: إن الحملة الفرنسية حين جاءت إلى مصر وجدت الأزهر يموج بتيارات جديدة تتعدى جدرانه إلى الحياة في مصر كلها [١].

لقد كان الأزهر – وما زال ، وسيظل بمشيئة الله تعالى – يحمل لواء الدين واللغة ، ولله درّ شوقي إذ يقول [٢]:

قـم في فـم الدنيا وحيّ الأزهـرا ... وانثر على سمع الزمـان الجوهـرا
واجعـل مكـان الدرّ –إن فـصلتـه ... في مدحـه– خرز السماء النـيرا [٣]
واذكره بعـد المسجـدين معظـمـا ... لمسـاجـد الله الثـلاث مكبـرا
واخشـع مليًّا واقض حـقّ أئـمـة ... طلعوا به زهرا وماجـوا أبحـرا [٤]
كانوا أجَلّ من الملوك جـلالة ... وأعـز سلطـانًا وأفخـم مفخرا
زمن المخاوف كان فيه جنـابهـم ... حـرم الأمان وكان ظلهم الذَّرا [٥]

(١) راجع ، ص٦٩.

(٢) الشوقيات ، أحمد شوقي ١/ ٢٠٣.

(٣) خرز السماء : نجومها.

(٤) الزهر: جمع أزهر، وهو كل لون أبيض صافٍ مشرق مضيء .

(٥) الذّرا : ما استتر به ، يقال : أنا في ذرا فلان ، أي في كنفه وحمايته .

ويتجه شوقي إلى الملك فؤاد فيوصيه بالإحسان إلى الأكْفاء من طلاب الأزهر، فيقول[1]:

نظـرًا وإحسـانًـا إلـى عمـيـانه      وكـن المسيــح مداويًا ومجبـرا
والله ما تـدري لعــل كـفيـفهـم      يومًـا يكـون أبـا العـلاء المبصـرا
لـو تشتريه بنصف ملكك لم تجــد      غبنـا وجـلّ المُشترِي والـمُشترَى
إن فاتهم من نـور وجهـــك فائت      لم يعــدمـوا لوجـــوه برّك منظـرا
لمســوا نداك كمن يشـاهــد مزنة      ويـد الضـرير وراءهـا عين تـرى
زدهم أبا الفـاروق إنـــك خيّـرٌ      مـن خيـر ولـد الكـريـمُ الخيّـرا

**٣ـ اتساع نطاق التعليم**:

ذكرنا في حديثنا عن الأزهر الشريف أن العثمانيين- في محاولة منهم للقضاء على اللغة العربية وفرض اللغة التركية على البلاد – أغلقوا المدارس التي كانت قائمة في عهد المماليك ، فلم يبق إلا الأزهر الذي حفظه الله من كيدهم ، فلما استقر الأمر لمحمد علي أسس أول مدرسة حربية سنة ١٨١٥م، واتخذ من قصر ابن العيني مقرًّا لها، وكان كل طلابها في أول الأمر من الأجانب غير أنهم لم ينجحوا فاتجه محمد علي إلى المصريين، ونقل المدرسة إلى أبي زعبل ، واستقدم لها الأساتذة من الغرب وبخاصة باريس.

ورأى محمد علي أن الجيش في حاجة إلى أطبـاء يأسون جراحـات الجنـد، ويقاومون الأوبئة ، ويعنون بالمرضى فأنشأ مدرسة الطب سنة ١٨٢٦م في

---

(١) انظر: أحمد شوقي للدكتور/ زكي مبارك، ص٢٨٢ ، ط : دار الجيل ، بيروت ، ١٩٨٨م.

جهة أبي زعبل، وأقام بجوارها مستشفى كبيرًا لمعالجة المرضى، ولتمرين وتدريب طلاب هذه المدرسة، واستقدم لها أساتذة من الغرب، وجعل رئاستها إلى الدكتور "كلوت بك" الفرنسي وكان طلاب هذه المدرسة من المصريين وغيرهم ، وقد اختير كثير منهم من بين نوابغ طلاب الأزهر، ثم نقلت هذه المدرسة إلى قصر ابن العيني سنة ١٨٣٨م.

ثم رأى محمد علي أن تشمل نهضته جميع نواحي الحياة ، فأكثر من إنشاء المدارس العالية والابتدائية ، وقد بدأ بالمدارس العالية حتى يجد بجانبه جماعة من المتخصصين في العلوم المختلفة يشرفون على مراحل التعليم الأخرى ، ويسيرون بالنهضة سريعًا ، فأسس مدرسة للصيدلة ، وأخرى للهندسة في القلعة ثم نقلت إلى بولاق ، كما أسس مدرسة للولادة والتمريض ، ورأى أن الحاجة ماسة إلى أساتذة متخصصين للتدريس في هذه المدارس ، فاستقدم لها أساتذة من الغرب ، ثم أدرك أن النهضة الحقّة لا تتم إلا على يد أبناء البلاد فأكثر من البعثات[1] التي عاد أبناؤها ليقوموا بالتدريس في هذه المدارس ، فكانوا نواة نهضة علمية حقيقية.

---

(١) انظر: في الأدب الحديث لعمر الدسوقي ١/ ١٩- ٢١، وعلى الرغم من هذه النهضة فإن محمد علي قد حكم المصريين بالقهر، وجعل من مصر مزرعة كبرى يجني وحده خيراتها، وينفق من تلك الخيرات على الجيش الذي يعده لتمكين ملكه ، وتوطيد دعائم عرشه ، وتوسيع نفوذه ، وأخذ يسوق المصريين إلى الجندية سوق القطيع في معاركه مع السلطان أو الوهابيين ، وكان يفضل الأجانب على المصريين ، يقول الشيخ محمد عبده : "فصغرت نفوس الأهالي بين أيدي الأجانب بقوة الحاكم ، وتمتع الأجنبي بحقوق الوطني التي حرمها ، وانقلب الوطني غريبًا في داره غير= =

ثم كثرت المدارس في عهد إسماعيل بعد خمودها في عهدي عباس الأول وسعيد.

وفي سنة ١٩٠٨م أسست أول جامعة مصرية ، وكانت تسمى بالجامعة الأهلية ، ويقوم بالتدريس فيها أساتذة من مصر والغرب ، حتى أصبحت جامعة رسمية سنة ١٩٢٥م ، ثم أخذت هذه الجامعة تتسع وتتشعب حتى اشتملت على العديد من الكليات الأدبية ككليات دار العلوم ، والآداب ، والدراسات العربية ، والتربية ، مما كان له أثر واضح في النهضة العلمية والأدبية.

كما نظمت الدراسة بالأزهر فصارت له معاهده وكلياته المنتشرة في ربوع القطر، والتي أسهمت إسهامًا واضحًا في النهضة العلمية والأدبية وإحياء التراث ، وقد ظل الأزهر عبر قرون طويلة – وما زال – يحمل لواء الدفاع عن الدين واللغة ، والذود عن حماها بكل إيمان وبسالة وإصرار ، نسأل الله – تعالى– أن يحفظه ، وأن يبارك في مسيرته ، وأن يهيئ له من أبنائه المخلصين من يعيد له مجده ، ويرد كيد مناوئيه في نحورهم.

**٤ـ الطباعة**:

كان نسخ الكتب وبيعها – المعروف بالوراقة – هو الأسلوب الوحيد في إظهار الكتب ونشرها إلى أن هدى الله العقل البشري إلى الطباعة ، فكانت

= = مطمئن في قراره ، فاجتمع على سكان البلاد المصرية ذلان: ذل ضريبة الحكومة الاستبدادية المطلقة، وذل سامهم الأجنبي إياه ليصل إلى ما يريد منهم غير واقف عند حد أو مردود إلى شريعة".

من أعظم المخترعات التي أفاد منها المجتمع الإنساني .

وأقدم مطبعة ظهرت في مصر هي مطبعة الحملة الفرنسية جاء بها نابليون معه سنة ١٧٩٨م لطبع المنشورات والأوامر باللغة العربية ، وقد بدأوا بذلك وهم على سفنهم في عرض البحر، فلما وطنت أقدامهم الإسكندرية قاموا بتوزيع تلك المنشورات على المصريين ، ثم قاموا بطبع صحيفتين باللغة الفرنسية ونشرة باللغة العربية تسمى "التنبيه"، كما طبعوا كتاب التهجية العربية والتركية والفارسية سنة ١٧٩٨م، ثم كتاب القراءة العربية ، ثم معجمًا فرنسيًّا عربيًّا ، ثم كتابًا في اللهجة المصرية العامية.

ثم ظلت مصر بعد خروج الفرنسيين منها نحو عشرين عامًا بلا طباعة، حتى استقر الأمر لمحمد علي فأنشأ أول مطبعة مصرية سنة ١٨٢١م[1]، وكانت تعرف بالمطبعة الأميرية أو مطبعة الباشا ، وتعرف – أيضًا – بمطبعة بولاق لوجودها في هذا الحي القاهري المصري.

وكانت هذه المطبعة – في بداية أمرها – تقوم بطبع الكتب عن اللغات الأجنبية في العلوم الحديثة ؛ كالرياضيات والطبيعيات ، والطب ، والجراحة والفنون الحربية ، أما الكتب الأدبية فتأخر طبعها قليلا ، ومن أول ما طبع منها: كليلة ودمنة ، وخزانة الأدب ، ومقدمة ابن خلدون ، ومقامات

(١) كان محمد علي قد اشترى مطبعة نابليون التي تركها الفرنسيون عند خروجهم من القاهرة سنة ١٨٠١م ، غير أنها لم تعمل إلا سنة ١٨٢١م بعد أن استقر الأمر لمحمد علي ، وأحس بحاجته الشديدة إلى النهضة العلمية ، وقد كانت الطباعة من أهم وسائلها.

الحريري ، وتفسير الرازي ، والقاموس المحيط ، والأغاني لأبي الفرج الأصفهاني ، كما كانت هذه المطبعة تقوم بطبع صحيفة "الوقائع المصرية" التي صدر أول عدد منها سنة ١٨٢٨م.

ثم أخذت المطابع العربية تظهر الواحدة تلو الأخرى حتى كثرت وتعددت، فيسرت سبل الحصول على الكتاب، وقامت بنشر أمهات الكتب، وأسهمت إسهامًا كبيرًا في إحياء التراث الأدبي، وقد أحسن الرواد الأوائل اختيار ما طبع من كتب التراث، فقدموا للعقل البشري في مصر وغيرها من البلاد العربية والإسلامية أطيب موارد الثقافة، فكان لذلك أثره الواضح في نبوغ كثير من الأدباء والشعراء والنقاد في مصر وغيرها من الأقطار.

**٥- الصحافة**:

تعد الصحافة واحدًا من أهم أسس النهضة الأدبية الحديثة ، وعاملًا من أهم العوامل في مقاومة اللهجات العامية ، وانتشار اللغة الفصحى ، ومجالا واسعًا لنشر المقالات والبحوث الأدبية ، والعلمية ، والسياسية ، والتاريخية، والاجتماعية ، كما أن لها أكبر الأثر في ظهور وازدهار فن المقال ، وفي تخليص الأسلوب الأدبي من قيود الصنعة وأثقال الزينة اللفظية.

وكانت الصحافة في أول عهدها رسمية حكومية تعنى بنشر أخبار الدولة وقوانينها ، ثم تحولت إلى موارد للعلوم والآداب والسياسة والاجتماع ، تشبع كل رغبة ، وتفيد كل طالب ، وقد نشأ في ظلها كثير من الكتاب والأدباء

والسياسيين الذين كان لهم دور بارز في النهضة العلمية والأدبية ، وقد جمعت بعض المقالات التي نشرت بها فصارت كتبًا رائعة مفيدة في أسلوب اللغة وصناعة الأدب ، ومن هذه الكتب : "وحي القلم" للرافعي ، "حديث الأربعاء" لطه حسين ، "فيض الخاطر" لأحمد أمين ، "حصاد الهشيم" للمازني ، "مطالعات في الكتب والحياة" للعقاد .

وتعد صحيفة الوقائع المصرية التي صدرت في عهد محمد علي سنة ١٨٢٨م أول صحيفة عربية عامة[١]، وقد حرر أول عدد منها باللغة التركية، ثم عهد في تحريرها والإشراف عليها إلى الشيخ العطار ، فحررت فصولها بالعربية والتركية معًا ، ثم اقتصر بعد ذلك على تحريرها باللغة العربية.

كما تعد "حديقة الأخبار" لصاحبها خليل الخوري أول صحيفة عربية تصدر في "سوريا" سنة ١٨٥٨م ، ثم خطت الصحافة العربية خطوة كبيرة سنة ١٨٦٠م ، بظهور صحيفة "الجوائب" في "الأستانة" لصاحبها أحمد فارس الشدياق ، أحد أركان النهضة العربية الحديثة ، وقد كان للجوائب شأن عظيم عند أدباء العرب ، ونفوذ لدى ولاة الأمور بالأستانة وغيرها ، وكانت ميدانًا لأقدم أدباء ذلك العصر للمناظرة والمناضلة ، وظلت هذه الصحيفة تصدر حتى سنة ١٨٨٤م[٢].

---

(١) كان محمد علي قد أصدر سنة ١٨٢٢م "جرنال الخديوي" غير أنها كانت شبه خاصة ، فكان يطبع منها مائة نسخة فقط ، وكانت ترسل إلى رجال الدولة الذين يهم الحاكم أن يقفوا منه على أحوال البلاد ، ولذا اعتبرنا "الوقائع المصرية" أول صحيفة عربية عامة.

(٢) انظر: تاريخ آداب اللغة العربية ، لجرجي زيدان ٤/ ٥٤.

وبعد صدور صحيفة الجوائب بعام واحد صدرت في تونس صحيفة "الرائد التونسي" سنة ١٨٦١م ، ثم أخذت الصحف تظهر وتتوالى في سوريا ، والمغرب ، ومصر، ومن أول الصحف التي ظهرت بمصر بعد "الوقائع المصرية": صحيفة وادي النيل (القديمة)، ثم تلتها صحف أخرى مثل: الإسكندرية ، الزمان ، الاعتدال ، الفلاح ، الأهرام ، المقطم ، المؤيد ، اللواء ، العلم ، الجريدة ، الشعب ، حتى وصلت إلى الحد الذي نراه اليوم ؛ مما كان له أكبر الأثر في النهضة الفكرية والأدبية والنقدية.

**٦ـ عوامل أخرى**:

إلى جانب العوامل التي مرَّ ذكرها كانت هناك عوامل أخرى أثرت في النهضة الأدبية الحديثة ، منها:

- **إنشاء دار الكتب المصرية**:

وقد أسسها "علي مبارك" سنة ١٨٧٠م ، فكان لها أثر كبير في نشر الثقافة العربية وإحياء التراث ، فقد قدَّمت للباحثين والطلاب ما كان محبوسًا في التكايا وقصور الحكام ، مقصورًا عليهم بعيدًا عن أيدي الشعب وطلاب العلم والمعرفة [1].

- **المجامع والجمعيات العلمية والأدبية**:

وكان لهذه الهيئات العلمية أثر كبير في خدمة اللغة العربية ، وفي تعريب المصطلحات العلمية والفنية ، ونشر التراث العربي ، ومن أبرز الهيئات: المجمع العلمي العربي بدمشق ، والمجمع العلمي العراقي ببغداد ، والمجمع

---

(١) من الأدب الحديث في ضوء المذاهب الأدبية والنقدية ، للأستاذ الدكتور/ علي علي صبح ، ص١٥.

اللغوي بمصر، والجمعية السورية ببيروت ، وجمعية المعارف التي أسسها علي مبارك بالقاهرة سنة ١٨٦٨م ، فقامت بطبع المخطوطات من تراثنا القديم للجاحظ والآمدي ، وعبد القاهر الجرجاني ، وبشَّار وأبي نواس والبحتري ، وغيرهم ، فأصبح هذا التراث في متناول الجميع ينير الفكر، ويهذب الذوق ، ويسلم به اللسان من اللحن ومن العامية [1].

- **تكوين الأندية والمنتديات العلمية**:

وقد كانت هذه الأماكن مجالاً واسعًا لعرض القضايا ، وتبادل الآراء ، كما كانت ساحة فسيحة للحوار والمناقشة ، "وقد كان هناك من هذه الأماكن ما يعرف باسم الندوة أو الصالون الأدبي ، وهو المكان الذي يعتاد أرباب الفكر والرأي على ارتياده لإثارة القضايا والمسائل ، وعرضها للبحث والدرس ، وقد كانت ندوة "مي زيادة" ميدانًا يتنافس كثير من الأدباء الكبار على غشيانه ، والاختلاف إليه ، والظهور على خشبة مسرحه"[2]، كما كانت ندوة الإمام محمد عبده في بيته بعين شمس قبلة أنظار المفكرين والأدباء ورجال السياسة ، وقد نشأ وترعرع في ظلها كثير من الشعراء والكتاب .

- وأخيرًا اتساع نطاق الإعلام المرئي ، سواء عبر القنوات والأقمار الصناعية أم عبر تقنيات التواصل الحديثة .

---

(١) انظر: من الأدب الحديث في ضوء المذاهب الأدبية والنقدية، ص١٥، ٢٢.

(٢) تاريخ الأدب العربي في العصر الحاضر للأستاذ الدكتور/ إبراهيم على أبو الخشب ، ص٥٩.

- يضاف إلى ذلك كثرة عدد المساجد والحاجة الماسة إلى آلاف الخطباء ؛ مما أثرى هذا الفن وأسهم في بروز كثير من أعلامه.

وقد تنوعت الخطابة في هذا العصر ما بين سياسية ، ودينية ، وقضائية ، وبرلمانية ، واجتماعية ، وبرز في كل فن من فنونها أعلام كبار يُشَار إليهم بالبنان.

**أ- نماذج من الخطابة في هذا العصر** :

**١- من خطب مصطفى كامل**[1]:

خطب مصطفى كامل في حفل وطني بالإسكندرية سنة ١٩٠٠م خطبة رائعة قال فيها : سادتي وأبناء وطني الأعزاء ، كلما جئت إلى الإسكندرية، ورأيت هذه الحياة الحقيقية التي جعلت لكم مقامًا محمودًا بين بني مصر، أعود شاعرًا بأن في هذه المدينة الزاهرة أساتذة في الوطنية، عنهم تؤخذ دروس محبة الأوطان ، ومنهم تعرف الأمة حقوقها وواجباتها ، وهذا ما أخرني في السنين الأخيرة عن الوقوف أمامكم هـذا الموقف ، ومناجاتكم

---

(١) هو: مصطفى كامل بن علي محمد، نابغة مصر في عصره ، وأحد مؤسسي نهضتها الوطنية. ولد في القاهرة سنة ١٨٧٤م ، وكان أبوه ضابطًا مهندسًا ، أحرز شهادة الحقوق من جامعة (تولوز) بفرنسا ، وكان فصيحًا، ساحر البيان ، انصرف إلى مقاومة الاحتلال بخطبه ومقالاته وكتبه. ونشر دعوته السياسية في صحف فرنسا ومجتمعاتها ، وأنشأ في مصر جريدة (اللواء) اليومية سنة ١٩٠٠م ، وأنشأ جريدتين إحداهما بالإنجليزية والثانية بالفرنسية ، سمى كلًّا منهما (اللواء) أيضًا، وتوفي شابًّا سنة ١٩٠٨م ، فرثاه شعراء مصر وكتَّابها. (انظر: الأعلام للزركلي ٧/ ٨، ط: ١٥، دار العلم للملايين ٢٠٠٢م).

في شئون الوطن العزيز.

إني أشد الناس أملا في مستقبل أمتي وبلادي ، وأرى الشعب الذي أنا منه جديرًا بالرفعة والسمو ، حقيقًا بالمجد والحرية والاستقلال .

ولولا هذا الأمل وهذا الاعتقاد ، لكنت فارقت الحياة ، وتركت الدنيا غير آسف على أحد ، وكيف لا أكون ذا أمل ، وهذه أمتي أجد فيها روحًا جديدة ، وحياة صادقة ، ووطنية ناشئة قوية؟ ومن منكم لا يرى ما أرى؟ هل ينكر أحد شعور الأمة بحالها وانتباهها من رقدتها ، وقيامها من وهدتها وعملها لخيرها ، وسعادتها؟!

قد يظن بعض الناس أن الدين ينافي الوطنية ، أو أن الدعوة إلى الدين ليست من الوطنية في شيء ، ولكني أرى أن الدين والوطنية توأمان متلازمان ، وأن الرجل الذي يتمكن الدين من فؤاده ، يحب وطنه حبًّا صادقًا ، ويفديه بروحه وما تملك يداه ، ولست فيما أقول معتمدًا على أقوال السالفين ، الذين ربما اتهمهم أبناء العصر الحديث بالتعصب والجهالة ، ولكني أستشهد على صحة هذا المبدأ بكلمة "بسمارك" أكبر ساسة هذا العصر، وهو خير رجل خدم بلاده ورفع شأنها، فقد قال هذا الرجل العظيم بأعلى صوته : لو نزعتم العقيدة من فؤادي لنزعتم محبة الوطن معها [1].

---

(١) تطور الأدب الحديث في مصر، أحمد عبد المقصود هيكل، ص ١٧٨ – ١٧٩، دار المعارف، ط:٦، ١٩٩٤م.

## ٢ـ من خطب سعد زغلول [1]:

- خَطَب سعد زغلول في حفل أعضاء مجلس الشيوخ ، الذي أقامه له هؤلاء الأعضاء بعد انتخابهم لأول مرة سنة ١٩٢٤م ، خطبة رائعة قال فيها:

أيها السادة ، شيوخنا الكرام : أشكر حضراتكم على هذه الحفلة المملوءة وقارًا ، وعلى هذا التكريم الجامع لأسباب البهجة والسـرور ، وأشعر في نفسي بخجل شديد عندما أتصور أن شخصي الضعيف هو موضوع هذا الاحتفال الشائق ، وأنه المعني بمدح خطبائكم والمقصود من ثنائكم ، اعتقادًا مني أني دون ما تصفون ، ولا شك أنكم تغرفون لي من بحار فضلكم ، وأنكم إنما تنظرون إليّ بالنظرة العاطفة ، لا بالنظرة الكاشفة ، جزاكم الله أحسن الجزاء ، وأقدرني على أن أستحق هذا الثناء .

---

(١) هو: سعد زغلول ، ولد عام ١٨٥٨م في قرية إبيانة مركز فوه التابعة وقتذاك لمديرية الغربية ، بدأ تعليمه في الكتاب حيث تعلم القراءة والكتابة وحفظ القرآن ، ومبادئ الحساب ، وفى عام ١٨٧٠م التحق بالجامع الدسوقي لكي يتم تجويد القرآن ، ثم التحق بالأزهر عام ١٨٧٣م ليتلقى علوم الدين. كذلك فقد تتلمذ على يد المصلح الديني الكبير الشيخ الإمام / محمد عبده فشب بين يديه كاتبًا خطيبًا ، أديبًا سياسيًّا ، وطنيًّا إذ كان صديقًا له رغم العشـر سنوات التي كانت تفصل بينهما في العمر ، عمل في الوقائع المصرية ، وعمل معاون بنظارة الداخلية ، وشارك في الثورة العرابية ، عمل بالمحاماه ، وقاد سعد زغلول ثورة ١٩١٩م ، وشكل أول وزارة يرأسها مصري من أصول ريفية ، وسميت وزارة الشعب ، وأسهم في تأسيس الجامعة المصرية ، ونقابة المحامين، توفي في ٢٣ من أغسطس ١٩٢٧م. (انظر: الأعلام للزركلي ٣/ ٨٣).

وبعد ... فإني أهنئكم من كل قلبي بالثقة التي اكتسبتموها من البـلاد .. لأن تؤلفوا مجلس الشيوخ في أول برلمان في بلادنا على الطراز الحديث ، وأعد نفسي سعيدة بأني أول وزير مصري لحكومة دستورية ، تستمد قوتها من إرادة الشعب ، وتستند في بقائها على ثقة نوابه ...

ستصبح هذه المبادئ بعد يوم واحد نافذة المفعول فينا ، ويصبح أمر الكل للكل ، ويشعر كل مصري أن حياته وحريته وشرفه وماله وولده ، كل ذلك تحت حماية القانون ، وأن على القانون حارسًا قويًّا أمينًا هو البرلمان ، وأن البرلمان تحت حراسة أمة يقظة ، والكل في ذمة الله وعنايته .

بعد يوم واحد تجد الوزارة نفسها مسئولة أمام نواب البلاد ، وأن عليها أن تبرر أعمالها العامة أمامكم ، كما تبررها أمام ضمائرها الخاصة ، وتشعر من جهة أخرى بخفة ثقل المسئولية الملقاة عليها ؛ لوجود قوة بجانبها تقاسمها هذه المسئولية ، كما تشاطرها النظر في إدارة أمور البلاد .

بعد يوم واحد يحل احترام الحكومة محل الخوف منها ، ويشتد القرب منها بعد البعد عنها ؛ إذ يستيقن الكل أنها ليست إلا قسمًا من الأمة تخصص لخدمتها العامة ، حسب القانون والمبادئ الديمقراطية ، وأن لكل واحد حصته فيها ، فيبذل الكل جهودهم في معاونتها على القيام بمهمتها الخطيرة.

وأكبر هذه المهمات شأنًا ، وأخطرها قدرًا وأشغلها لعقلي ولبي ، هي مهمة الاستقلال التام لمصر والسودان .. يتلو هذه المهمة مهمة القيام بالإصـلاحات الداخلية ، وحلّ ما عقده الماضي من المشكلات ، وتذليـل ما

أقامته السياسات من العقبات في طريقنا ، وما هذا بالهنات الهينات .

... فعلى الذين يحملهم فرط الحب للبلاد على تعجلنا أن يتريثوا بنا ويتمهلوا ؛ لأن طبيعة الأشياء تأبى الطفرة ، ولكل شيء وقته ووسائله ، وعليهم أن يعتقدوا كل الاعتقاد أن هناك عقولا مشغولة بهذه المهام ، وعزائم معقودة على معالجتها ، وأن التأخير فيها ليس قصورًا أو تقصيرًا ، ولكنه جرى مع الطبيعة على حكمها.

وليتأكدوا أننا نزداد كل يوم قوة في الإرادة ، ومضاءً في العزم ، وثباتًا في الخطة ، وغيرة على الصالح العام ، فليصبروا ، إن الله مع الصابرين ، وليثقوا بنا ، إننا لا نقصد إلا خيرهم ، ولا نفتر طرفة عن خدمتهم ، ولا نترك فرصة تمر حتى ننتهزها لبلوغ المراد ، حقق الله أملنا ، ووفقنا جميعًا إلى الرشاد [1].

**٣ـ من خطب مكرم عبيد** [2]:

**ـ من خطبة له في مجموعة من الشباب ١٩٢٣م**:

بقيت لي كلمة أخيرة ، عن تلك الدسيسة المنكرة التي يقوم بها المستعمرون في هذه الأيام ، للتفريق بين المسلمين والأقباط ، يقولون أقباط

---

(١) تطور الأدب الحديث في مصر، ص ٤٠٦ – ٤٠٧ .

(٢) هو : وليم مكرم عبيد ، ولد ٢٥ من أكتوبر ١٨٨٩م بمحافظة قنا لعائلة من أشهر العائلات القبطية، درس القانون في أكسفورد ، عمل في مجال الترجمة والدعاية في الخارج ضد الاحتلال ، عُيِّن وزيرًا للمواصلات عام ١٩٢٨م ، بعد معاهدة ١٩٣٦م عُيِّن وزيرًا للمالية ، ثم عمل بالمحاماة ، ونذر وقته كله للدفاع عن قضايا الوطن ، توفي ٥ من يونيو ١٩٦١م. (انظر: موسوعة نساء ورجال من مصر، لمعي المطيعي ص ٢٧٨ ، دار الشروق ، القاهرة ٢٠٠٢م ، ومكرم عبيد كلمات ومواقف، منى مكرم عبيد ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٩٠م).

ومسلمون .. كلا ، بل هم مصريون ومصريون وآباء وأمهات وبنون .

أيقال هذا القول في مصر، وعن مصر التي علمت العالم والشرق خاصة معنى الاتحاد المقدس؟!

وإني لأذكر أنه في وقت خروج المنشقين من الوفد دب الضعف في نفسي، فذهبت مع بعض أصدقائي إلى الرئيس، وقلت له: إنه لا يصح أن تكون الأغلبية في الوفد من الأقباط ، فغضب الرئيس كل الغضب وقال: "ماذا تقول ؟ فإني لا أعرفك أنت وإخوانك كأقباط بل أنتم مصريون وكفى".

وما اتحادنا إلا اتحاد قلوبنا ونفوسنا ومشاعرنا ، ولن يفصلها فاصل بعد أن جمعها الواحد القهار[1].

**ـ من خطبة له خطبها عام ١٩٢٤م**:

أما الأمل فكلمة سهلة ولكنها عاطفة صعبة ، فمن الهين على الإنسان أن يؤمل خيرا، ولكن استمرار الأمل من أشق الأمور وأثقلها على النفس، وذلك لأن الأمل ككل عاطفة في الحياة يحتاج إلى تغذية يومية ، ولا غذاء للأمل إلا بالعمل ، أما مجرد الأمل دون العمل فهو الوهم ، وهو الأحلام الطائشة التي لا تغني ولا تشبع من جوع ، إذن فلا بد من العمل لتغذية الأمل واستمراره ، وكما أن الأمل هو القوة الدافعة للعمل فالعمل هو القوة الحافظة له [2].

---

(١) مكرم عبيد كلمات ومواقف ، ص٩١، ٩٢.

(٢) المرجع السابق ، ص ٩٦.

**ـ من خطبة له خطبها بمدينة الإسكندرية** :

أيها المواطنون الكرام :

ليس لي بإزاء هذا الشعور الوطني المحتشد والإخلاص البريء المتقد ، إلا أن أحني الرأس إكبارًا وإجلالًا لتلك الوطنية المصرية العجيبة.

مرحى لهذه الأمة العريقة الجد ، الفتية الولد ، ربيبة المجد ، حليفة الأبد ، مرحى لأمة كلما أرادوا لها فناء اشتقت من عناصره خلودًا ، أو أنزلوا بها ظلمًا اتخذت من أعوانه جنودًا ، أو استلانوا لها قناة ثبت الله أقدامها ، فبرزت أقوى يقينًا وأصلب عودًا ، مرحى لأمة تعبت الحوادث في مرادها (١).

**٤ـ من خطب طه حسين** (٢):

- خطب طه حسين في حفل تكريم العقاد الذي كان قد أقيم له سنة

---

(١) مكرم عبيد كلمات ومواقف ، ص ١٤٩، ١٥٠.

(٢) هو: طه حسين علي، ولد في إحدى قرى محافظة المنيا بصعيد مصر في عزبة "الكيلو"، وكان والده موظفًا صغيرًا في شركة السكر، فقد طه حسين بصره في السادسة من عمره نتيجة الفقر والجهل، وحفظ القرآن قبل أن يغادر قريته إلى الأزهر طلبًا للعلم ، وفي الأزهر تتلمذ على يد الإمام محمد عبده والتحق بالجامعة المصرية التي حصل منها على درجة الدكتوراه الأولى في الآداب عام ١٩١٤م عن أبي العلاء المعري ، ثم حصل على درجة الدكتوراه من فرنسا ، وبعد عودته سنة ١٩١٩م عمل أستاذًا للتاريخ اليوناني والروماني إلى سنة ١٩٢٥م، حيث تم تعيينه أستاذًا في قسم اللغة العربية ، ثم أصبح عميدًا لكلية الآداب عام ١٩٣٠م ، وعين وزيرًا للمعارف ، كما أنتج أعمالاً كثيرة قيمة ، ولُقِّب بعميد الأدب العربي ؛ نظرًا لتأثيره الواضح على الثقافة المصرية والعربية. وتوفي في ٢٨ من أكتوبر ١٩٧٣م عن عمر يناهز ٨٤ عامًا. (انظر: الأعلام للزركلي ٧/ ٢٣١، ٢٣٢).

١٩٣٤م بمناسبة نظمه "النشيد القومي" خطبة رائعة ، وهي الخطبة التي بايع فيها طه حسين العقاد بإمارة الشعر، وفيها يقول:

نحن حين ندرس الشعر مضطرون إلى أن ندع ميولنا ، وأهواءنا ، وعواطفنا ، وإلى أن نحكم عقولنا وذوقنا وحده ، ونحن إذن من هذه الناحية بخلاء بالمدح ، بخلاء بالثناء ، لا نقدم المدح إلا بمقدار ، ولا نثني إلا بشيء كثير من الاحتياط ؛ لأننا نزعم أننا أمناء على الفن ، وأن النقد يضطرنا إلى أن نتجنب الغلو والإسراف ، ومع هذا فإني أريد أن أكون منصفًا مسرفًا في الإنصاف إن صح هذا التعبير ، وأريد أن لا أتحرج في المدح أو الثناء ، ولكني على كل حال أعلن إليكم راضيًا سعيدًا ، أني مضطر أن أثني على العقاد الشاعر من غير تحفظ أو احتياط .

لنا نحن النقاد مع العقاد مواقف ، يا لها من مواقف ، نختصم فيها حول المعنى اختصامًا مرهقًا عنيفًا ، ونختصم معه في اللفظ اختصامًا نضيق نحن به ويضيق به الناس ، ولكننا حين نحتدم معه في معنى أو لفظ ، أو حين نشتط عليه في النقد ، لا نزيد على أن نعترف له أنه الشاعر الفذ ، ولولا أنه الشاعر الفذ لما خاصمناه.

أما أنا أيها السادة فسعيد بهذه الفرصة التي أتيحت لي ، ومكنتني من أن أعلن رأيي في صراحة ، وأن أقول – وقد يكره هذا مني كثير من الناس-: أني لا أؤمن في هذا العصر الحديث بشاعر عربي كما أؤمن بالعقاد ، أنا أعرف حق المعرفة

وأقدر كما ينبغي نتيجة هذه المقالة التي أعلنها سعيدًا مغتبطًا، أعلم هذا حق العلم ، وأعلنه مقتنعًا به محتملا تبعاته ، وقد تعودت احتمال التبعات الأدبية .

تسألونني لماذا أؤمن بالعقاد في الشعر الحديث ، وأؤمن به وحده؟ وجوابي يسير جدًّا ، لماذا؟ لأنني أجد عند العقاد ما لا أجده عند غيره من الشعراء ، وإن شئتم فإنني لا أجد عند العقاد ما أجده عند غيره من الشعراء؛ لأني حين أسمع شعر العقاد ، أو حين أخلو إلى شعر العقاد ، فإنما أسمع نفسي أو أخلو إلى نفسي ، إنما أرى صورة قلبي ، وصورة قلب الجيل الذي نعيش فيه ، وحين أسمع لشعر العقاد ، إنما أسمع الحياة المصرية الحديثة ، وأتبين المستقبل الرائع للأدب العربي الحديث ، إنما أرى شيئًا لا أراه عند غيره من الشعراء ، تستطيعون أن تنظروا في أي ديوان من دواوين العقاد ، لا أطلب منكم أن تقرأوا شعر العقاد الآن ، إنما انظروا في الفهرست وحده ، فسترون من هذه النظرة اليسيرة في هذه الصفحات القليلة ، أن العقاد شيء آخـر ، وأن شعر العقاد شيء آخر ، وأنه أرسل ليتحدث إلى نفوسكم أحاديث لم يتحدث بها أحد من قبل .

ثم لماذا أيضًا؟ لماذا أُكْبِر العقاد ، وأؤمن به وحده دون غيره من الشعراء في هذا العصر؟ لأن العقاد – أيها السادة – يصوّر لي هذا المثل الأعلى في الشعر الذي أحببته ، وتمنيت وجاهدت في أن يحبه الشباب ، هذا المثل الأعلى الذي يجمع بين جمال العربي القديم ، وبين أمل المصري الحديث ، هذا المثل

الذي ليس محافظًا مسرفًا في المحافظة ، وليس مجددًا مسرفًا في التجديد ، إنما هو مزاج مقتصد منهما ، هو حلقـة اتصال ، هو صلة خصبة بين مجدنـا القديم ، وما نطمع فيه من مجدنـا الحديث .

... كنا أيها السادة نشفق على الشعر العربي ، وكنا نخاف عليه أن يرتحل سلطانه عن مصر، وكنا نتحدث حين مات الشاعران العظيمان شوقي وحافظ، كنا نتحدث عن علم الشعر العربي المصري أين يكون ومن يرفعه للشعراء والأدباء يستظلون به؟ كنا نسأل هذا السؤال ، وكنت أنا أسأل هذا السؤال ، لماذا؟ لأني كنت أرى شعر العقاد ، على علو مكانته وجلال خطره شعرًا خاصًّا مقصورًا على المثقفين والمترفين في الأدب ، وكنت أسأل: هل آن للشعر القديم المحافظ المسرف في المحافظة أن يستقر وأن يحتفظ بمجده؟ وهل آن للشعر الجديد الذي يصور مجد العرب ، وأمل المصريين أن ينشط ويقوى؟

انتظرت فلم أجد للمقلدين حركة أو نشاطًا، فإذا المدرسة القديمة قد ماتت بموت شوقي وحافظ، وإذا المدرسة الجديدة قد أخذت تؤدي حقها، وتنهض بواجبها ، فترضي المصريين والعرب جميعًا ، وإذا الشعر الجديد يفرض نفسه على العرب فرضًا ، وإذا الشعور المصري والقلب المصري ، والعواطف المصرية أصبحت لا ترضى أن تصور كما كان يصورها حافظ وشوقي ، إنما تريد وتأبى إلا أن تصور تصويرًا جديدًا ، هذا التصوير الذي حمل الملايين على إكبار العقاد كما قال أحد الخطباء ، إذن لا بأس على الشعر العربي والأدب العربي ، وعلى مكانة مصر في الشعر والأدب.

ضعوا لواءً في الشعر في يد العقاد ، وقولوا للأدباء والشعراء : أسرعوا واستظلوا بهذا اللواء ، فقد رفعه لكم صاحبه[1].

- **موسوعة الخطب العصرية**:

إيمانًا منا في وزارة الأوقاف المصرية بأهمية الخطابة ولا سيما الخطابة الدينية في بناء الوعي وبناء الشخصية ، وحتمية التجديد في مختلف المسارات، كان اهتمامنا شديدًا بتطوير رسالة خطبة الجمعة ، فأخرجنا "موسوعة الخطب العصرية" في ثمانية أجزاء ، من إعداد الإدارة العامة للفتوى وبحوث الدعوة بديوان عام الوزارة ، بإشرافنا ومراجعتنا.

وتأكيدًا منا على أهمية مواكبة الخطابة الدينية لظروف عصرها وبيئتها وواقعها ، أخرجنا كتاب "مائة خطبة عصرية في قضايا الساعة" في جزءين، من إعداد الإدارة العامة للفتوى وبحوث الدعوة ، بإشرافنا ومراجعتنا أيضًا ، متضمنًا معالجة علمية ودعوة هادفة لمائة موضوع من صميم الواقع المعاش ، نضع مختارات منها بين يدي القارئ الكريم ليدرك مدى تطور الخطابة الدينية وتفاعلها مع قضايا الواقع:

**الأنموذج الأول**:

**من خطبة ( النفع العام في ميزان الشرع الحنيف )**:

إن المتأمل في أحكام الشريعة الإسلامية يجد أنها جاءت لتحقيق مصالح البلاد والعباد ، فكل ما يحقق النفع العام للناس يكون موافقًا للشرع وإن لم

---

(١) تطور الأدب الحديث في مصر، ص ٤٠٨ – ٤٠٩.

يرد فيه نص صريح ، وكل ما يصطدم مع مصالح الناس ومنافعهم فلا أصل له في الشرع الشريف .

إن الدين الإسلامي الحنيف لا يَعْرِف الفردية أو الأنانية أو السلبية ، وإنما يدعو إلى النفع العام ، والعطاء الصادق ، وينادي بالتعاون على البرِّ والتقوى في إطار من المحبة والإيثار ، حتى يحقق المجتمع الرقي المنشود ، والتكافل المحمود ، ويكون سعي الفرد فيه من أجل المجموع ، فيتحقق الخير للفرد والمجموع معًا ، ويتعمق في قلوب أبناء الوطن إحساس الجسد الواحد الذي إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى ، ولله در شوقي حيث قال [1]:

بِـــلادٌ ماتَ فِتيَتُهـــا لِتَحيـــــا وَزالـــوا دونَ قَومِهِـــمُ لِيَبقـــوا

ولا شك أن المتدبر لكتاب الله (عز وجل) يدرك يقينًا أن المقصد العام والكلي من تشريع الأحكام للناس هو تحقيق مصالحهم بجلب النفع والخير لهم، ودفع الضر والشر عنهم ، فما أرسل الله (عز وجل) نبيًّا ولا رسولاً إلا لإسعاد قومه وتحقيق الخير لهم دون انتظار لمقابل أو منفعة دنيوية ، قال تعالى على لسان نبيه نوح (عليه السلام): ﴿ وَيَا قَوْمِ لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلاَ عَلَى اللهِ﴾ [هود : ٢٩]، وقال سبحانه على لسان نبيه هود (عليه السلام): ﴿يَا قَوْمِ لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلاَ عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾

---

(١) الشوقيات ، أحمد شوقي ٢/ ٤٥٥ .

[هود: ٥١]، وهذا خليل الرحمن إبراهيم (عليه السلام) يتضرع إلى ربه (عز وجل) بدعاء يبين مدى حرصه على نفع الناس ودوام الخير لهم قائلاً: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِالله وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ [البقرة: ١٢٦]، فمن المعلوم أن المقصود من البلد هنا أهلها ، كما دعا لهم بالرزق الذي يغنيهم عن غيرهم ؛ لأن البلد إذا كان آمنا، ومطالب الناس الحياتية متوفرة فيه ، ساعد ذلك أهله على طاعة الله بنفوس مستقرة ، وقلوب مطمئنة ، تسعى لتحقيق مراد الله (عز وجل) من الخلق بعمارة الأرض وإصلاحها.

ولقد جاءت الشريعة المحمدية لتُعلي من شأن هذا المبدأ الإنساني والإصلاحي القويم ، والسيرة النبوية المطهرة ، وحياة الصحابة الكرام زاخرة بالمواقف العظيمة التي تدل على ذلك.

فعن أَبِى سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ (رضي الله عنه) قَالَ : بَيْنَمَا نَحْنُ فِي سَفَرٍ مَعَ النَّبِيِّ (صلى الله عليه وسلم) إِذْ جَاءَ رَجُلٌ عَلَى رَاحِلَةٍ لَهُ قَالَ: فَجَعَلَ يَصْرِفُ بَصَرَهُ يَمِينًا وَشِمَالًا ، فَقَالَ رَسُولُ الله (صلى الله عليه وسلم): (مَنْ كَانَ مَعَهُ فَضْلُ ظَهْرٍ فَلْيَعُدْ بِهِ عَلَى مَنْ لاَ ظَهْرَ لَهُ ، وَمَنْ كَانَ لَهُ فَضْلٌ مِنْ زَادٍ فَلْيَعُدْ بِهِ عَلَى مَنْ لاَ زَادَ لَهُ) قَالَ: فَذَكَرَ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ مَا ذَكَرَ حَتَّى رَأَيْنَا أَنَّهُ لاَ حَقَّ لأَحَدٍ مِنَّا فِي فَضْلٍ) (صحيح مسلم).

وفي عهد سيدنا عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) حينما ضاق المسجد الحرام على الناس ، أجبر (رضي الله عنه) أصحاب البيوت المجاورة للمسجد على بيع دورهم ، وقال لهم : " إنما أنتم الذين نزلتم على الكعبة، ولم تنزل الكعبة عليكم" (أخبار مكة للأرزقي)، وكذلك فعل سيدنا عثمان بن عفان (رضي الله عنه) هذا الأمر مرة أخرى ، وقال: "إنما جرأكم عليَّ حلمي ، فقد فعل عمر بكم ذلك فلم تتكلموا ". (التاريخ الكبير للذهبي) ؛ مما يدل على جواز نزع الملكية الفردية لمصلحة المرافق العامة كتوسيع الطرق والمقابر وإقامة المساجد وإنشاء الحصون، والمؤسسات العامة كالمشافي والمدارس والملاجئ ونحوها؛ لأن المصلحة العامة مقدمة على المصلحة الخاصة.

لقد راعى الإسلام ترتيب الأولويات حتى في الأعمال الصالحة، فأمر عند المفاضلة بين عملين كلاهما خير بتقديم المصلحة العامة على المصلحة الخاصة أو الشخصية ؛ ذلك أن المصلحة العامة نفعها مُتعدٍّ ، أما المصلحة الشخصية فنفعها لا يتجاوز صاحبها ، فلو أن رجلًا يعمل في مؤسسة ما ويتقاضى على عمله هذا أجرًا فيقضي ليله في الصلاة والقيام ، ثم إذا جاء النهار ذهب إلى عمله متعبًا مرهقًا ولم يقم بواجبه المنوط به ، وتعطلت بسببه مصالح هذه المؤسسة ، ومصالح من تقوم المؤسسة بخدمتهم ، أليس ذلك تضييعًا للأمانة ، وأكلًا لأموال الناس بالباطل ، وتفريطًا في المسئولية التي

كُلف بها؟ وهو بذلك قد أضاع الواجبات من أجل أداء النوافل ، وهذا لا شك عدم فهم لمقاصد الدين.

فما أحوجنا إلى فهم ديننا فهمًا صحيحًا، وإدراكنا لواقعنا إدراكًا واعيًا يجعلنا نقدر حجم المخاطر التي تحيط بنا، ويحملنا على تقديم النفع العام والمصلحة العامة على المصلحة الشخصية بكل إخلاص وتجرد ، امتثالاً لتعاليم ديننا الحنيف ، ورغبة في تقدم وطننا ورفعته والنهوض والرقي به إلى المكانة التي تليق به وبأبنائه.

* * *

**الأنموذج الثاني**:

**من خطبة (حرمة التلاعب بأقوات الناس وحاجاتهم الأساسية)**:

إن الإسلام بوسطيته وشمولية منهجه جاء بما يتماشى مع حياة أتباعه الاجتماعية ، ويتوافق مع تطلعاتهم المعيشية واحتياجاتهم الدنيوية ، فلا يصطدم مع طبيعتهم البشرية بل يهذبها ويصون كيانها، ولا يقف حائلًا دون رغباتهم الإنسانية بل يشبعها وينظم دوافعها دون ميل أو حيف، قال تعالى: ﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ الله يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة:١٩٥]، وعَنْ عَبْدِ الله بْنِ عَمْرٍو (رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا) قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله (صلى الله عليه وسلم): "الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ، ارْحَمُوا مَنْ فِي الأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ"(سنن الترمذي).

ومن ثَمَّ حثت الشريعة الإسلامية التاجر المسلم على السهولة واليسر، والسماحة وحسن المعاملة ، ونُبل الأخلاق في البيع والشراء ، لا يُغالي في الرِّبح، ولا يبالغ في التكسُّب ، فذلك سبب إلى وجود البركة في الرزق، والسعة في الأموال ، فعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله (رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا) أَنَّ رَسُولَ الله (صلى الله عليه وسلم) قَالَ: "رَحِمَ اللهُ رَجُلاً سَمْحًا إِذَا بَاعَ وَإِذَا اشْتَرَى وَإِذَا اقْتَضَى" (صحيح البخاري)، وفي رواية أخرى "غَفَرَ اللهُ لِرَجُلٍ كَانَ قَبْلَكُمْ ، كَانَ سَهْلاً إِذَا بَاعَ ، سَهْلاً إِذَا اشْتَرَى ، سَهْلاً إِذَا اقْتَضَى" (سنن الترمذي).

وفي المقابل حرمت الشـريعة الإسلامية كل صور المعاملات المحـرمة ، التي تؤدي إلى الكسب الخبيث ، والتي من شأنها أن توغر الصدور ، وتفسد العلاقة بين المسلمين ، ومن ذلك :

الغش بجميع صوره : فقد أكد القرآن الكريم حرمة هذه الآفة الخطيرة، وتوعد عليها بالويل والخسران ، لمن يتلاعب بالوزن والكيل، فقال سبحانه: ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ * الَّذِينَ إِذَا اكْتالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ * وَإِذا كالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ [المطففين:١ – ٣].

ومن الغش: دسُّ الرديء في ثنايا الجيد، وبيعه جميعًا بقيمة الجيد دون بيان الواقع والحقيقة، وكذلك إخفاء العيب الموجود في السلعة، فإن باع بيعًا يعلَم أنَّ فيه عيوبًا قد لا يطَّلع المشتري عليها إلاّ بعد حين يُعتبر بهذا آكلًا للحرام؛ لأن الواجب عليه أن ينصَحَ لإخوانه ، وأن يحبَّ لهم ما يحبُّه لنفسه ، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه) أَنَّ رَسُولَ الله (صلى الله عليه وسلم) مَرَّ عَلَى صُبْرَةٍ طَعَامٍ ، فَأَدْخَلَ يَدَهُ فِيهَا ، فَنَالَتْ أَصَابِعُهُ بَلَلا ، فَقَالَ: "ما هذا يَا صَاحِبَ الطَّعَامِ؟"، قَالَ: أَصَابَتْهُ السَّمَاءُ يَا رَسُولَ الله ، قَالَ: "أَفَلاَ جَعَلْتَهُ فَوْقَ الطَّعَامِ كي يَرَاهُ النَّاسُ"، ثُمَّ قَالَ: "مَنْ غَشَّ فَلَيْسَ مِنِّي" (صحيح مسلم).

وكذلك من المكاسب الخبيثة التي حرمها الإسلام ونهى عنها : احتكار السلع الأساسية التي يحتاجها الناس ، ورفع أسعارها ، وتلاعب بعض

التجار بأقوات الناس وضروريات حياتهم ، سواءً كان طعامًا أو لباسًا أو دواءً أو عقارًا ، أو غير ذلك مما يحتاجه الناس ؛ فذلك مما تستنكفه الفطر السليمة وتترفع عنه الطبيعة الإنسانية ، وقبل ذلك تحرمه الأديان السماوية؛ ذلك لأنه مسبب للفرقة مستنبت للكراهية والضغينة ، كما أنه إضرار بالناس، والنبي (صلى الله عليه وسلم) يقول : "لا ضَرَرَ ولا ضِرَارَ" (سنن ابن ماجه).

وقد تضافرت الأحاديث النبوية على التشنيع على المحتكرين لأرزاق وأقوات الناس بغية المغالاة في أسعارها.

ومن ذلك: قوله (صلى الله عليه وسلم): " مَنِ احْتَكَرَ حُكْرَةً يُرِيدُ أَنْ يُغْلِيَ بِهَا عَلَى الْمُسْلِمِينَ، فَهُوَ خَاطِئٌ"، وفي روايةٍ : "... وقد بَرِئَتْ مِنْهُ ذِمَّةُ الله ورسولِه " (مسند أحمد).

وعَنِ ابْنِ عُمَرَ (رضي اللهُ عَنْهُمَا ) عَنِ النَّبِيِّ (صلى الله عليه وسلم) قَالَ: "مَنِ احْتَكَرَ طَعَامًا أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ، فَقَدْ بَرِئَ مِنَ الله ، وَالله بَرِيءٌ مِنْهُ ، وَأَيُّمَا أَهْلِ عَرْصَةٍ ظَلَّ فِيهِمُ امْرُؤٌ جَائِعًا ، فَقَدْ بَرِئَتْ مِنْهُمْ ذِمَّةُ الله" (مسند أحمد).

ومما لا شك فيه أن احتكار السلع يحمل في طياته بذور الهلاك والدمار، وليعلم المحتكر أن هذا الربح الزائد الذي يجنيه من احتكاره حرام ؛ لأنه ليس نظير زيادة في البضاعة ولا في صفاتها ، ولا نظير خدمة خاصة يقدمها البائع، إنما هو إلجاء أصحاب الحاجات إلى شراء حاجاتهم بأكثر من أثمانها الحقيقية؛ من أجل ذلك كان المحتكر للسلعة ملعونًا ، وخاطئًا ، وقد برئت منه ذمة الله ورسوله ، وتوعده الله بالعقاب الأليم ، فعَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ

(رضي الله عنه) قَالَ : قَالَ رَسُولُ الله (صلى الله عليه وسلم): "الْجَالِبُ مَرْزُوقٌ وَالْمُحْتَكِرُ مَلْعُونٌ " (سنن ابن ماجه)، وعن عُمَرَ بن الخطاب (رضي الله عنه) قال: سَمِعْتُ رَسُولَ الله (صلى الله عليه وسلم) يَقُولُ: " مَنِ احْتَكَرَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ طَعَامًا ضَرَبَهُ اللهُ بِالْجُذَامِ وَالإِفْلاَسِ" (سنن ابن ماجه).

أما التاجر الذي يرأف بالناس يرأف الله به ، ومن يرحمهم يرحمه الله ، ومن ييسر عليهم ييسر الله عليه ، ومن صدق في بيعه وشرائه نال الأجر العظيم والثواب الجزيل ، ويكفيه شرفًا وفخرًا أن ينال الجنة بفضل الله تعالى ورحمته ، فقد رُوي عن أَبِي سَعِيدٍ (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): " التَّاجِرُ الصَّدُوقُ الأَمِينُ مَعَ النَّبِيِّينَ ، وَالصِّدِّيقِينَ ، وَالشُّهَدَاءِ " (سنن الترمذي).

* * *

**الأنموذج الثالث**:

**من خطبة (مبدأ الحق مقابل الواجب وسيلة لإصلاح المجتمع)**:

إن الإنسان مدني بفطرته ، لا يستطيع أن يعيش بمعزل عن غيره ، ولا يقضي حاجته وحده ، وإقامة الحياة وإنشاء الحضارة والعمران يتطلب التعايش بين الناس ، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣]، وهذا التعايش لن يتم ولا يكون سلميًّا متوازنًا إلا إذا قام على مبدأ معرفة الحق مقابل الواجب ، وهو مبدأ إسلامي أصيل.

إن معرفة الإنسان حقوقَه وواجباتِه تجعله إنسانًا إيجابيًّا في مجتمعه ، نافعًا لوطنه ، لا يصطدم مع الآخرين من حوله.

وإذا اعتمدت الأمة مبدأ السهولة والمطالبة بالحقوق وأغفلت مبدأ القيام بالواجب فإنها أسرع إلى الزوال ، فحرصُ الإنسانِ على حقه وتركُه واجبَه هو الأثرة والأنانية ، وقد قَالَ رَسُولُ الله (صلى الله عليه وسلم): " إِنَّهَا سَتَكُونُ بَعْدِى أَثَرَةٌ وَأُمُورٌ تُنْكِرُونَهَا"، قَالُوا : يَا رَسُولَ الله ، كَيْفَ تَأْمُرُ مَنْ أَدْرَكَ مِنَّا ذَلِكَ؟ قَالَ: "تُؤَدُّونَ الْحَقَّ الَّذِى عَلَيْكُمْ وَتَسْأَلُونَ اللهَ الَّذِى لَكُمْ" (متفق عليه).

إن الحق ليس هدية تعطى ولا غنيمة تغتصب ، وإنما هو نتيجة حتمية للقيام بالواجب ولكل سعيٍ أثرُه ومنفعته وإن قَلّ.

وهي حقوق متبادلة بين الأفراد ، يعم نفعها على الجميع ولا تأتي في صالح فرد دون الآخر، فهناك مثلاً حقوق للآباء والأمهات في أعناق الأبناء يجب أداؤها ومراعاتها ، وفي مقابلها حقوق للأبناء في أعناق الآباء والأمهات.

وهناك الحقوق والواجبات المتبادلة بين أفراد الأسرة الواحدة ، فللزوج حقوق على الزوجة ، وللزوجة حقوق على الزوج ، والله تعالى يقول: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٨]، وقد بيَّن النبي (صلى الله عليه وسلم) ذلك بقوله: "أَلَا إِنَّ لَكُمْ عَلَى نِسَائِكُمْ حَقًّا وَلِنِسَائِكُمْ عَلَيْكُمْ حَقًّا، فَأَمَّا حَقُّكُمْ عَلَى نِسَائِكُمْ فَلَا يُوطِئْنَ فُرُشَكُمْ مَنْ تَكْرَهُونَ ، وَلَا يَأْذَنَّ فِي بُيُوتِكُمْ مَنْ تَكْرَهُونَ ، أَلَا وَإِنَّ حَقَّهُنَّ عَلَيْكُمْ أَنْ تُحْسِنُوا إِلَيْهِنَّ فِي كِسْوَتِهِنَّ وَطَعَامِهِنَّ" (سنن الترمذي).

كما فرض الإسلام حقوقًا متبادلة بين المسلم وأخيه المسلم ، بيَّنها النبي (صلى الله عليه وسلم) في أحاديث عديدة ، منها قوله (صلى الله عليه وسلم): "حَقُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ سِتٌّ" قِيلَ: مَا هُنَّ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: "إِذَا لَقِيتَهُ فَسَلِّمْ عَلَيْهِ، وَإِذَا دَعَاكَ فَأَجِبْهُ ، وَإِذَا اسْتَنْصَحَكَ فَانْصَحْ لَهُ ، وَإِذَا عَطَسَ فَحَمِدَ اللهَ فَشَمِّتْهُ ، وَإِذَا مَرِضَ فَعُدْهُ ، وَإِذَا مَاتَ فَاتَّبِعْهُ" (صحيح مسلم).

وكذا حقوق الجار التي جعلها النبي (صلى الله عليه وسلم) شرطًا للإيمان فقَالَ: "مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيُحْسِنْ إِلَى جَارِهِ" (متفق عليه).

وهناك حقوق وواجبات متبادلة بين المعلم والتلميذ ، وبين صاحب العمل والعامل ، وضرورة توفية أجره ، وفي هذا يقـــول الرسول (صلى الله عليه وسلم) فيما يرويه عن ربه سبحانه : " قَالَ اللهُ: ثَلاَثَةٌ أَنَا خَصْمُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، رَجُلٌ أَعْطَى بِي ثُمَّ غَدَرَ ، وَرَجُلٌ بَاعَ حُرًّا فَأَكَلَ ثَمَنَهُ ، وَرَجُلٌ اسْتَأْجَرَ أَجِيرًا فَاسْتَوْفَى مِنْهُ وَلَمْ يُعْطِ أَجْرَهُ" (صحيح البخاري).

والمواطنون لهم حقوق على الدولة ، منها : حمايتهم وحماية ممتلكاتهم وتوفير الأمن والاستقرار ، وضمان المسكن الملائم والتملك والعمل ، وحرية التنقل ، وحرية الرأي ، وضمان التعليم والصحة ، وإقامة المرافق العامة كالنقل والمواصلات ، والمياه النظيفة ، وضمان حرية العبادة ، وتحقيق العدل بين الناس.

أمّا الواجبات التي على المواطن تجاه وطنه – وتُعدُّ من الأمانات التي يجب عليه أن يقوم بها ؛ لأنه سيُسأل عنها يوم القيامة ، قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى الله ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨١] – فمنها: المحافظة على المال العام ، واحترام القوانين المنظمة للأعمال والطريق ، ونشر ثقافة التراحم والتسامح والمحبة بين أبناء الوطن جميعًا، فرسالة الإسلام قد لخّصها القرآن الكريم عندما حدد أهدافَ مهمةِ النبي الكريم (صلى الله عليه وسلم)، رسول الرحمة والإنسانية ، فقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

ومن حق الوطن على أبنائه كذلك : المشاركة في تنميته زراعيًّا ، واقتصاديًّا ، وسياسيًّا ، وعلميًّا ، ودعم المنتجات الوطنية، واحترام الآخر مع اختلاف انتمائه الديني ، أو الثقافي ، أو السياسي ، وعدم اللجوء إلى العنف والإرهاب ، أو إشاعة الفوضى والتخريب وحمل السلاح في وجه المواطنين المسالمين الآمنين ، أو حراس الوطن وحماته من الجيش والشرطة ، والخروج عن إطار القانون والإفساد والفساد الاجتماعي ، وغير ذلك من الواجبات اللازمة على المواطن تجاه وطنه.

إن هذه الحقوق والواجبات في الأصل عبادة يتوجه بها العباد إلى الله تعالى قبل كل شيء ، فمثلًا صلة الرحم وبر الآباء عبادة يتقرب بها الإنسان إلى الله تعالى ، فالجزاء عليها من الله تعالى لا من العبد ، ولهذا حين جاء رجل إلى النبي (صلى الله عليه وسلم) قائلا: يَا رَسُولَ الله ، إِنَّ لِي قَرَابَةً أَصِلُهُمْ وَيَقْطَعُونِي ، وَأُحْسِنُ إِلَيْهِمْ وَيُسِيئُونَ إِلَيَّ، وَأَحْلُمُ عَنْهُمْ وَيَجْهَلُونَ عَلَيَّ ، فَقَالَ: "لَئِنْ كُنْتَ كَمَا قُلْتَ فَكَأَنَّمَا تُسِفُّهُمُ الْمَلَّ ، وَلاَ يَزَالُ مَعَكَ مِنَ الله ظَهِيرٌ عَلَيْهِمْ مَا دُمْتَ عَلَى ذَلِكَ"(صحيح مسلم)، وإن نظرنا إلى العمل مثلا لوجدنا الله تعالى يحب إتقان العمل ، كما أخبر بذلك النبي (صلى الله عليه وسلم): "إِنَّ الله يُحِبُّ إِذَا عَمِلَ أَحَدُكُمْ عَمَلاً أَنْ يُتْقِنَهُ"(المعجم الكبير).

وهكذا إن لم يؤدَّ إليك ما هو لك فليس هذا مسوغًا أن تهمل وتترك ما هو واجب عليك ، بل أدِّ ما عليك وقم بواجبك قاصدًا وجه الله تعالى ، فهو

المكافئ والمجازي والمحاسب ، فإن الإنسان إذا أدى ما عليه فالله مثيبه ومكرمه ولا يضيع أجره ، قال تعالى: ﴿ إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠]، وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٣٠].

ولنعلم أنه ما ضاعت أمة ولا هلك مجتمع إلا حينما تغافل الناس وتركوا مبدأ الحق مقابل الواجب ، فالبعد عن هذا المبدأ بُعْدٌ عن تحقيق العدالة الاجتماعية ، وطريق لنشر الفوضى والأنانية والكثير من العلل الباطنة والظاهرة ، وهذا يؤدي إلى تقويض بنيان المجتمع ، وهذا ما يأباه العاقل لوطنه ، فما بالكم بالمؤمن المخلص؟!

* * *

**الأنموذج الرابع**:

**(من خطبة مفهوم المواطنة والانتماء**
**وواجبنا تجاه السائحين والزائرين والمقيمين)**:

لقد جُبِل الإنسان بفطرته على حب الوطن والانتماء إليه ، وهذا ما حثَّت عليه الشرائع السماوية ، وأكده ديننا الحنيف ، ولعلَّ خير دليلٍ على ذلك: ما أعلنه نبينا (صلى الله عليه وسلم) عن حبِّه ووفائه لوطنه مكة المكرمة ، وهو يغادرها مهاجرًا إلى المدينة ، فعن ابْنِ عَبَّاسٍ (رَضِيَ الله عَنْهُمَا) قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله (صلى الله عليه وسلم): (مَا أَطْيَبَكِ مِنْ بَلْدَةٍ وَأَحَبَّكِ إِلَيَّ، وَلَوْلا أَنَّ قَوْمِي أَخْرَجُونِي مِنْكِ ، مَا سَكَنْتُ غَيْرَكِ) (سنن الترمذي)، وفي رواية: أنه (صلى الله عليه وسلم) وَقَفَ عَلَى الْحَزْوَرَةِ - موضع بمكة- فَقَالَ لمكة: (عَلِمْتُ أَنَّكِ خَيْرُ أَرْضِ الله ، وَأَحَبُّ الأَرْضِ إِلَى الله (عَزَّ وَجَلَّ)، وَلَوْلا أَنَّ أَهْلَكِ أَخْرَجُونِي مِنْكِ مَا خَرَجْتُ). (مسند أحمد).

ولقد تجسَّد مفهوم المواطنة من خلال وثيقة المدينة التي كانت بمثابة الدستور الأول المنظم للعلاقات بين البشر ، والتي تعد أفضل أنموذج في فقه التعايش السلمي بين البشر جميعًا على اختلاف أديانهم وأعراقهم ؛ لذا حققت نجاحًا على أرض الواقع .

على أن المواطنة تتضمن حقوقًا وواجبات ، فمن حقوقها:

* حرية العقيدة والعبادة وممارسة الشعائر الدينية لكل أبناء الوطن الواحد، وأساس هذه الحرية قوله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ

مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، ويقول سبحانه: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود: ١١٨، ١١٩].

* المحافظة على الدماء والأموال والأعراض ، فالأمن على الحياة مطلب إنساني أكد عليه الإسلام حتى مع غير المسلمين ؛ لذا جعل الله (عز وجل) قتلَ نفسٍ واحدةٍ بمثابةِ قتلٍ للناسِ جميعًا ، فقال تعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٣٢]، والأمر لا يقف عند حد القتل المادي فقط ، بل يشمل أيضًا القتل المعنوي في شتَّى صوره وأشكاله ، سواء أكان ذلك بالإذلال ، أم بالقهر والتعذيب ، أم بسلب الحرية ، أم بغير ذلك من الصور.

وقد نهى الشارع عن أكل أموال الناس بالباطل لحرمتها ، فأوجب قطع يد السارق ، وحذر الأمة من أن يأكل بعضهم مال بعض ، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ﴾ [النساء: ٢٩].

وكذلك حفظ الشارع للأعراض حرمتها فأوجب صيانتها ، وتوعد المخالف باللعنة ، فقال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ٢٣]، كذلك

نهى الشارع عن الاقتراب من الفاحشة ، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢].

* العدل والإنصاف بين أبناء الوطن الواحد في ضوء أسس المواطنة المتكافئة والتعايش السلمي واحترام الحقوق والواجبات المتبادلة تجاه الوطن والمواطن، قال تعالى: ﴿إِنَّ الله يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى﴾ [النحل: ٩٠ ]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ [النساء: ٥٨]، والإنسان مطالب بأن يعدل حتى مع أعدائه ، قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لله شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ [المائدة: ٨].

وكما أن المواطنة تمنح المواطنَ حقوقًا فإنها تلزمه ببعض الواجبات ، منها:

* التضحية من أجل الوطن ، وللتضحية صورٌ متعددة ، منها: التضحية بالنفس ، وهى أعلى وأغلى صور التضحية من أجل المحافظة على الأوطان، فحراسة الأوطان والدفاع عنها واجب شرعي وضرورة وطنية عدّها الشرع من أفضل الأعمال عند الله (عز وجل)، وقد بشر النبي (صلى الله عليه وسلم) حراس الوطن الذين يضحون بأنفسهم دفاعًا عن الوطن بقوله: "عَيْنَانِ لَا تَمَسُّهُمَا النَّارُ ، عَيْنٌ بَكَتْ مِنْ خَشْيَةِ الله ، وَعَيْنٌ بَاتَتْ تَحْرُسُ فِي سَبِيلِ الله" (سنن الترمذي).

وجدير بالذكر أن هناك فرقًا بين التضحية بالنفس في سبيل الدين والوطن وبين من يفجر نفسه لإيذاء الآخرين ، فليس هناك شرع يبيح أو

يجيز ذلك ، فمفجر نفسه سواءٌ أصاب غيره أم لم يصب منتحر، يعجل بنفسه إلى الهلاك في الدنيا والآخرة .

* العمل الجاد المثمر ، واستثمار ثروات الوطن من أجل تحقيق نهضته وازدهاره ، ولن يتحقق ذلك إلا برجال مخلصين قادرين ، يشاركون في تشجيع الاستثمار ، وتنمية المجتمع ، وفي الوقوف بجانب الفقراء والمحتاجين ، فهذا واجب وطني ومطلب شرعي يتحتم عليهم أن يقوموا به ، قال تعالى : ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا الله إِنَّ الله شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [المائدة : ٢].

* تقديم مصلحة الوطن العامة على المصلحة الخاصة ، والمشاركة في المحافظة على أمنه واستقراره ، والتصدي بحزم لكل حملات التخريب والإفساد ، وهذا لا يكون إلا بوحدة الصف والهدف ، وأن نكون جميعًا على قلب رجل واحد ، قال تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ الله جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا..﴾ [آل عمران: ١٠٣].

إن الانتماء للوطن يحتم على المواطن الوفاء بكل حقوقه وعهوده ومواثيقه وقوانينه ومن أهمها:

الحفاظ على كل من دخل بلدنا سائحًا ، أو زائرًا ، أو مقيمًا ؛ لأن الإذن الذي يحصل عليه بدخول بلدنا إنما هو بمثابة عهد أمان وضمان من أن يؤذىَ أو يعتدىَ عليه بأي نوع من أنواع الاعتداء ، وأن الاعتداء على أي من

السائحين ، أو الزائرين ، أو المقيمين ، إنما هو خيانة دينية وطنية ، وجريمة نكراء.

ونؤكد أن السياح والمقيمين لهم جميعًا أمان الله وأمان رسوله (صلى الله عليه وسلم) وأمان الوطن ، ولهم حق الحماية الكاملة ، وأن الاعتداء على أي منهم قولا أو فعلا أمر يرفضه الشرع الحنيف ويجرمه القانون ، ويستوجب أشد العقوبات ، فقد أمرنا الله تعالى بالوفاء بالعقود ، فقال: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ [المائدة: ١]، وقال سبحانه: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ الله إِذَا عَاهَدْتُمْ﴾ [النحل: ٩١]، وقال (صلى الله عليه وسلم): "الْمُسْلِمُونَ عِنْدَ شُرُوطِهِمْ إِلاَّ شَرْطًا حَرَّمَ حَلاَلا ، أَوْ شَرْطًا أَحَلَّ حَرَامًا" (صحيح البخاري).

ومن ثمّ فإن التعامل مع السائحين والمقيمين والزائرين لبلادنا ينبغي أن يكون بالحسنى ، مع وجوب حمايتهم وكفِّ الأذى عنهم ؛ لأن الخروج على ذلك إنما هو خروج على مقتضيات الشرع والوطنية والإنسانية السوية.

❊ ❊ ❊

**الأنموذج الخامس**:

## من خطبة ( تقديم المصلحة العامة على الخاصة وأثره في استقرار المجتمعات وبناء الدول):

لا خلاف بين العقلاء وأولي الألباب في أنّ ما يحقق النفع العام للبلاد والعباد مقدمٌ على ما يحقق النفع الخاص لشخص بعينه أو مجموعة من الأشخاص ؛ ذلك أن المصلحة العامة تجلب الخير والنفع للناس ، وتدفع عنهم الشر والمفاسد ، وتحقق حماية الوطن واستقراره وسلامة أراضيه ، ولا شك أن تحقيق صلاح الأمة وعموم المجتمع هو ما يقتضيه فقه الأولويات ، ولقد جاء الشرع الحنيف بما يتوافق مع العقل ويتناسب معه ، حيث رغب في تقديم المصلحة العامة على المصلحة الخاصة.

لقد أكد القرآن الكريم على أن الحفاظ على المصلحة العامة وتقديمها على المصالح الخاصة هو منهج الرسل والأنبياء جميعًا ، يقول سبحانه على لسان سيدنا شعيب (عليه السلام): ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِالله عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ * وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ﴾ [هود:٨٨- ٨٩].

ومن أروع الأمثلة في ذلك ما جاء عن عَائِشَةَ (رضي الله عنها) أَنَّهَا قَالَتْ لِرَسُولِ الله (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): "يَا رَسُولَ الله ، هَلْ أَتَى عَلَيْكَ يَوْمٌ كَانَ أَشَدَّ مِنْ يَوْمِ أُحُدٍ؟" فَقَالَ: (لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكِ وَكَانَ أَشَدَّ مَا لَقِيتُ مِنْهُمْ

يَوْمَ الْعَقَبَةِ ، إِذْ عَرَضْتُ نَفْسِي عَلَى ابْنِ عَبْدِ يَالِيلَ بْنِ عَبْدِ كُلَالٍ فَلَمْ يُجِبْنِي إِلَى مَا أَرَدْتُ ، فَانْطَلَقْتُ وَأَنَا مَهْمُومٌ عَلَى وَجْهِي ، فَلَمْ أَسْتَفِقْ إِلَّا بِقَرْنِ الثَّعَالِبِ، فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَإِذَا أَنَا بِسَحَابَةٍ قَدْ أَظَلَّتْنِي ، فَنَظَرْتُ فَإِذَا فِيهَا جِبْرِيلُ ، فَنَادَانِي ، فَقَالَ : إِنَّ الله (عَزَّ وَجَلَّ) قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ ، وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ ، وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الْجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ "، قَالَ: (فَنَادَانِي مَلَكُ الْجِبَالِ وَسَلَّمَ عَلَيَّ ، ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ ، إِنَّ الله قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ ، وَأَنَا مَلَكُ الْجِبَالِ ، وَقَدْ بَعَثَنِي رَبُّكَ إِلَيْكَ لِتَأْمُرَنِي بِأَمْرِكَ ، فَمَا شِئْتَ ، إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِمُ الْأَخْشَبَيْنِ)، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ الله (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ الله مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ الله وَحْدَهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا) (متفق عليه)، وقد كان للنبي (صلى الله عليه وسلم) ما أراد ، وأخرج الله (عز وجل) من أصلابهم رجالا وَحَّدُوا الله ، وحملوا راية السلام والإسلام للعالم أجمع .

وقد رَبَّى النبيُّ (صلى الله عليه وسلم) أصحابه على هذه القيم والمبادئ التي من خلالها يرتقي الإنسان بنفسه ، ويكون عنصرًا مفيدًا في مجتمعه ، يعرف ما له وما عليه ، فيتحقق الأمن والأمان والكفاية والاستقرار في المجتمع.

فهذا هو أبو طلحة الأنصاري (رضي الله عنه) يتصدق بأحب ماله إلى قلبه ويجعله صدقة جارية ، فقد كَانَ (رضي الله عنه) أَكْثَرَ الأَنْصَارِ بِالْمَدِينَةِ

مَالًا مِنْ نَخْلٍ ، وَكَانَ أَحَبُّ أَمْوَالِهِ إِلَيْهِ بَيْرُحَاءَ ، وَكَانَتْ مُسْتَقْبِلَةَ المَسْجِدِ ، وَكَانَ رَسُولُ الله (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) يَدْخُلُهَا وَيَشْرَبُ مِنْ مَاءٍ فِيهَا طَيِّبٍ، فَلَمَّا أُنْزِلَتْ هَذِهِ الآيَةُ: ﴿ لَنْ تَنَالُوا البِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ [آل عمران :٩٢] قَامَ أَبُو طَلْحَةَ إِلَى رَسُولِ الله (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) فَقَالَ : يَا رَسُولَ الله ، إِنَّ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَقُولُ : ﴿ لَنْ تَنَالُوا البِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ وَإِنَّ أَحَبَّ أَمْوَالِي إِلَيَّ بَيْرُحَاءَ ، وَإِنَّهَا صَدَقَةٌ لله ، أَرْجُو بِرَّهَا وَذُخْرَهَا عِنْدَ الله، فَضَعْهَا يَا رَسُولَ الله حَيْثُ أَرَاكَ الله ، قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ الله (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (بَخٍ ، ذَلِكَ مَالٌ رَابِحٌ ، ذَلِكَ مَالٌ رَابِحٌ ، وَقَدْ سَمِعْتُ مَا قُلْتَ ، وَإِنِّي أَرَى أَنْ تَجْعَلَهَا فِي الأَقْرَبِينَ) فَقَالَ أَبُو طَلْحَةَ: أَفْعَلُ يَا رَسُولَ الله ، فَقَسَمَهَا أَبُو طَلْحَةَ فِي أَقَارِبِهِ وَبَنِي عَمِّهِ) (متفق عليه).

إن المتأمل في كثير من التشريعات الإسلامية يرى أنها تحث وترغب وتعمق مبدأ تقديم المصلحة العامة على المصلحة الخاصة ، ومن صور ذلك:

* في مجال التجارة: نهى النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) عن الاحتكار والاستغلال ، فقَالَ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (مَنِ احْتَكَرَ فَهُوَ خَاطِئٌ) (صحيح مسلم)، فالمحتكر وإن كان ظنه أن في ذلك تحقيق مصلحة شخصية له بنمو ربحه وتكثير ماله ، إلا أن ذلك لما كان فيه ضرر على المجتمع وتضييق على الناس ، كان في نظر الشارع يستحق العقوبة ؛ مراعاة لتقديم المصلحة العامة على المصلحة الشخصية.

* في مجال التكافل المجتمعي: نهى النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) عن ادخار الغـذاء وتخزينـه إذا كان المجتمـع في حاجة إليه ، فعَنْ سَلَمَةَ بْنِ الأَكْوَعِ ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (مَنْ ضَحَّى مِنْكُمْ فَلاَ يُصْبِحَنَّ بَعْدَ ثَالِثَةٍ وَبَقِيَ فِي بَيْتِهِ مِنْهُ شَيْءٌ) فَلَمَّا كَانَ العَامُ المُقْبِلُ ، قَالُوا: يَا رَسُولَ الله ، نَفْعَلُ كَمَا فَعَلْنَا العَامَ المَاضِي؟ قَالَ: (كُلُوا وَأَطْعِمُوا وَادَّخِرُوا، فَإِنَّ ذَلِكَ العَامَ كَانَ بِالنَّاسِ جَهْدٌ ، فَأَرَدْتُ أَنْ تُعِينُوا فِيهَا) (متفق عليه).

* في مجال المعاهدات الخارجية : ردَّ النبي (صلى الله عليه وسلم) أبا بصير (رضي الله عنه) بعد صلح الحديبية وفقًا للمعاهدة التي كانت بينه (صلى الله عليه وسلم) وبين قريش مع احتمال تعرض هذا الصحابي للأذى ؛ حفاظًا على العهد الذي عاهد عليه قريشًا ، وهذا من باب الوفاء بالعهد من جهة ، ومن باب تقديم وتغليب المصلحة العامة من جهة أخرى.

على أننا نؤكد أنَّ من المصالح العامة تلبية حاجات المجتمع الضرورية ومراعاة فقه الواقع وتقديم فقه الأولويات ، ولإعلاء المصلحة العامة أعلى الإسلام من شأن الوصية والصدقة الجارية ، فقال نبينا (صلَّى الله عليه وسلم): (ما حَقُّ امرئٍ مُسلمٍ له شيءٌ يُوصي فيه، يبيتُ لَيلَتينِ إلَّا ووصيتُه مكتوبةٌ عندَه) (متفق عليه)، وقال (صلى الله عليه وسلم): (إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ: صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ) (صحيح مسلم)، وقال (صلى الله عليه وسلم): (سَبْعٌ

يَجْرِي أَجْرُهَا لِلْعَبْدِ بَعْدَ مَوْتِهِ وَهُوَ فِي قَبْرِهِ ، مَنْ عَلَّمَ عِلْمًا ، أَوْ أَجْرَى نَهْـرًا ، أَوْ حَفَرَ بِئْـرًا ، أَوْ غَرَسَ نَخْلا ، أَوْ بَنَى مَسْجِدًا ، أَوْ وَرَّثَ مُصْحَفًا ، أَوْ تَرَكَ وَلَـدًا يَسْتَغْفِرُ لَهُ بَعْدَ مَوْتِهِ) (مسند البزار).

❊ ❊ ❊

# خاتمة

## خاتمة

قد يظن بعض من لا علاقة لهم بالعلم ، ولا الأدب ، ولا البلاغة ، ولا الفصاحة ، أن الخطابة صنعة من لا صنعة له ، كما صار الحال مع بعض من يظن أن القصة والمقالة كذلك.

وقد أغرى ما آل إليه حال الخطابة من الضعف في حقب سابقة بركوب مركب وعر وناقة غير ذلول ، فضلوا وأضلوا ، فكان لابد من إعطاء القوس باريها ، والرمح راميها ، فقررنا منع غير المؤهلين من صعود المنبر؛ حفاظًا على المنبر وعلى الأمن الفكري للمجتمع من جهالة الجهلاء ، وتنطع المتشددين ، وأباطيل المتطرفين .

وفي المقابل حاولنا أن نأخذ وبقوة بأيدي أبنائنا الأئمة إلى طريق الجادة من خلال برامج التدريب والتأهيل التي تحولت بهم من مناهج الحفظ والتلقين إلى مناهج الفهم والتفكير، وبيان أن الخطابة علم وفن تتطلب قدرات خاصة ، وخضنا بهم في غمار الحياة ، فعالجنا معهم موضوعات العصر وقضاياه ، وأخرجنا "موسوعة الخطب العصرية" في ثمانية أجزاء ، و"مائة خطبة عصرية في قضايا الساعة" في جزءين ، فعالجت هذه الخطب موضوعات في غاية الأهمية والحيوية ، منها على سبيل المثال:

١- أهمية التخطيط في حياة الفرد والمجتمع.

٢- حماية الشأن العام والمصلحة العامة.

٣- مفهوم عهد الأمان في العصر الحاضر.

٤- فروض الكفايات ودورها في تحقيق التوازن المجتمعي.

٥- ترتيب الأولويات وأثره في حياة الفرد والمجتمع.

٦- رعاية المسنين وحماية حقوقهم .

٧- الضوابط الشرعية للإنجاب ، وحق الطفل في الرعاية والنشأة الكريمة.

٨- خطورة الإدمان والمخدرات على الفرد والمجتمع.

٩- ضوابط الأسواق وآدابها.

١٠- الإتقان سبيل الأمم المتحضرة.

١١- النفع العام في ميزان الشرع الشريف.

١٢- حرمة التلاعب بأقوات الناس وحاجاتهم الأساسية.

١٣- مبدأ الحق مقابل الواجب وسيلة لإصلاح المجتمع.

١٤- مفهوم المواطنة والانتماء وواجبنا تجاه السائحين والزائرين والمقيمين.

١٥- تقديم المصلحة العامة على الخاصة وأثره في استقرار المجتمعات وبناء الدول.

وقد ضمنا هذا الكتاب نماذج مختارة منها.

ولنجاح الخطبة مقومات ، من أهمها : حسن اختيار الموضوع ، ومواكبته لظروف عصره ، وتفاعله مع أحداثه وقضاياه ، لا قضايا غيره ، ولا

قضايا بيئة غير بيئته ، وكلما مسَّت الخطبة حياة الناس كانت ألصق بهم وأكثر تأثيرًا فيهم .

ومنها : قناعة الخطيب بما يقول وإيمانه به ، يقولون: ما خرج من القلب استقر في القلب ، وما خرج من اللسان لا يكاد يجاوز الآذان ، ففاقد الشيء لا يعطيه ، والشعور الصادق يتعدى ، أما المفتعل أو الكاذب فلا صدى له ، وليست النائحة كالثكلى.

ومن أهمها ولا سيما في عصرنا الحاضر : عدم الإطالة التي تصل بالمستمع إلى الإملال ولو في أدنى درجاته.

ومنها : إعداد الخطيب لموضوعه إعدادًا جيدًا ، وترتيبه لأفكاره ، وعدم اعتماده على مجرد خبرته أو مخزونه الفكري والثقافي ، وعدم استهانته بثقافة المتلقين ، أو عدم تقديره لثقافتهم ووعيهم ، كما أن عليه أن يقدم جديدا سواء في المضمون والأفكار التي يتناولها أم في طريقة عرضه لموضوع خطبته.

ومنها : حسن اللمحة والإشارة ، وتمثيل المعاني ، والتماهي مع كل موقف بما يناسبه من الانفعالات ودرجات الصوت وطبقاته ، والقدرة على الإقناع بالحجة والبرهان .

ومن أهمها : مدى قابلية ما يعرضه للتطبيق وإمكانية تحويله إلى عمل ، لا مجرد كلام ولا جدل ، فالعاقل من يعمد إلى ما يترتب عليه عمل لا ما يسوق

أو يجر إلى المراء والجدل ، وأن يكون هدف الخطيب في تحديد مرامي خطبه شديد الوضوح بلا تعقيد ولا تكلف ولا التواء ، ولا تقعر في الكلام ، ولا في طبقات الصوت.

ومن أهمها ولاسيما في مجال الخطابة الدينية : أن يكون الخطيب قدوة بين مستمعيه ومحيطه المجتمعي ، فقد قالوا : حال رجل في ألف خير من كلام ألف لرجل ، وقديمًا قال سيدنا عثمان بن عفان (رضي الله عنه) : أنتم إلى خطيب فعَّال أحوج منكم إلى خطيب قوَّال ، ويقول أبو الأسود الدؤليُّ (رحمه الله) [1]:

يَا أَيُّهَا الرَّجُلُ الْمُعَلِّمُ غَيْرَهُ    هَلَّا لِنَفْسِكَ كَانَ ذَا التَّعْلِيمُ
تَصِفُ الدَّوَاءَ لِذِي السِّقَامِ وَذِي الضَّنَى    كَيْمَا يَصِحُّ بِهِ وَأَنْتَ سَقِيمُ
وَأَرَاكَ تُصْلِحُ بِالرَّشَادِ عُقُولَنَا    أَبَدًا وَأَنْتَ مِنَ الرَّشَادِ عَقِيمُ
لَا تَنْهَ عَنْ خُلُقٍ وَتَأْتِيَ مِثْلَهُ    عَارٌ عَلَيْكَ إِذَا فَعَلْتَ عَظِيمُ
ابْدَأْ بِنَفْسِكَ فَانْهَهَا عَنْ غَيِّهَا    فَإِذَا انْتَهَتْ عَنْهُ فَأَنْتَ حَكِيمُ
فَهُنَاكَ يُقْبَلُ مَا وعَظتَ وَيُقْتَدَى    بِالعِلْمِ مِنْكَ وَيَنْفَعُ التَّعْلِيمُ

ومن أهمها : سلامة اللغة ، وصحة العبارة ، وفصاحة الكلمة ، وسلاسة الأسلوب ، ووحدة الموضوع ، وبراعة الاستهلال ، وحسن الربط والانتقال، وحسن الختام.

---

(١) جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب ، أحمد بن إبراهيم بن مصطفى الهاشمي (المتوفى: ١٣٦٢هـ) ، ٢ / ٤٢٥ ، مؤسسة المعارف ، بيروت .

مع تأكيدنا أن لكل لون مـن ألـوان الخطابـة ثقافتـه ومقوماتـه وطبيعتـه وخصوصيته ، وأبرزها خبرة الخطيب في المجال الذي يتناوله سياسيًّا كان أم دينيًّا أم قضائيًّا أم برلمانيًّا أم اجتماعيًّا.

وصلِّ اللهم وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

*　*　*

## فهرس الموضوعات



❊ ❊ ❊




رقم الإيداع: /